يحانث ماء العينين

جراح مغتربة

رواية

مكتبة نوميديا 6
Telegram@ Numidia_Library

الفارابي
الفارابي

يحانث ماء العينين

جِراحٌ مُغترِبَة

(روايـــة)

دار الفارابي

الكتاب: جِراحٌ مُغتَرِبَة
المؤلف: يحانث ماء العينين
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/ ٣١٨١ - الرمز البريدي: ١١٠٧ ٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: نيسان ٢٠١٤
ISBN: 978-614-432-075-4

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع الدار.

إهداء

إلى من وهباني محبتهما وكرَّسا لي حياتهما
وعلّماني كيف أكون أنا كما أنا. إلى أبي وأمي،
إلى أخوتي
إلى حبيبة قلبي، أختي الصغيرة (الغالية).

١

جلست في المقهى كما اعتادت ترتشف خيبتها ممزوجة بمرارة قهوتها السوداء، وتُبادلُ الناس ابتساماتهم بحزن معدٍ.

لم يسعفها الحرف في التعبير عن إحساساتها الحارقة. كل الحروف والكلمات المضيئة هجرتها. كانت فقيرة من الحب غنية بلغته.. وأمست بعد غنىً فقيرة منهما معاً.

العناد سمة من سمات الرجال.. هكذا أخبرتها والدتها محذرة إياها ذات يوم حين رأتها تكابر لتعيش.. كانت تسأل نفسها: أصحيح أن الصعاب حكر على الرجال لا يخوض غمارها ولا يعلمها حقاً سواهم؟.. أجابتها الأيام عن سؤالها حين جعلتها تفعل ما لم يفعله رجل يوماً.. كانت تعلم أنها أنثى مختلفة عن النساء جميعاً.. هي مميزة بشهادة الجميع.. هي أنثى استثنائية. والأنثى الاستثنائية في مجتمعها ليست تلك

التي لا تفعل ما لم تسبقها إليه أنثى، بل هي تلك التي تجرؤ على اقتحام عالم الرجال فتتحلى بصفاتهم وتعاملهم نداً بند.

كانت تراقب الوقت يمضي ببطء.. يبدو أنه أخذ شيئاً من عنادها فأبى هو الآخر أن يمر سريعاً.. حاولت أن تشغل نفسها بمراقبة من حولها علها تغري سويعات الزمن بالانقضاء. خطتها الناجحة انقضَّت على الوقت كانقضاضها على نبضات قلبها الأليمة.

يتراءى لها في كل الوجوه، تراه باسماً وغاضباً ومتوتراً وضاحكاً ومازحاً. يخيل إليها أن الساعة أعلنت وصوله منهية فصولاً من الانتظار ظنتها لن تنتهي.. نهرت نفسها وحذرتها من النبش في ذكراه.. إنها لن تستسلم لها هذه المرة أبداً.

أقبلت جوليا بجلبتها المعتادة معلنة عن حضورها الفاتن.

أجابت النادل:

- jus d'orange .

ثم تابعت مخاطبة صديقتها حين انصرف:

- قهوة سوداء مرة أخرى؟

- ماذا أفعل يا عزيزتي.. إنه الإدمان.

كانت جوليا تعلم أن صديقتها أدمنت القهوة كما أدمنت استرجاع ذكراه وهي غارقة في بحر غيابه.. أحياناً نحارب مرارة آلامنا بأخرى أقسى منها وأشد مرارة. ندمن الألم فيصعب علينا العيش بدونه. ألم غريب ذاك الذي نقاسيه بعد الغياب.. ذلك الذي يخلقه الفراق، وتحرص الذكرى على تجديده لتغرس فينا حالة إدمان لأشياء أو لأشخاص وأحياناً لأماكن.. تعذبنا الذكرى لكننا نحرص على تغذيتها بدواخلنا.. ولن تموت إلا إذا أعلنّا موتنا معها.

سألتها جوليا بنبرة حزن:

- متى ستسافرين؟

- بعد أربعة أيام..

أربعة أيام ويحل الفراق.. سترحل بعيداً عن صديقات كن أقرب إليها من أهلها، بل كنَّ لها أهلا في غربتها. ستغادر مكاناً لا تنتمي إليه، لكنه أصبح جزءاً منها، إلى مكان تتوهم انتماءها إليه، ولا تشعر فيه سوى بالاغتراب.. مواطنة هي في غربتها. غريبة في وطنها.

قالت جوليا كأنها تواسي نفسها:

- لن ينقطع الاتصال بيننا مهما طال الزمن.

- أكيد.

ستحرص على توديع مدينة الأنوار كما يليق بمدينة في عظمتها. ستكون في أبهى حللها. ستدفنه في أعماق الذكرى.. ستحرص على ألا يطفو على سطح مشاعرها، فيعكر مزاجها كالعادة.. ستنساه كما وعدت نفسها ذات يوم.

لا تعرف أي طريق ستسلك إلى النسيان.. لكنها صممت على ترويض نفسها على نسيانه.. وهي متأكدة من وفائها بعهدها مهما كلفها الأمر.

غادرت بصحبة رفيقتها لتتركه كما اعتادت في زاوية متوارية في كل مكان تزوره. ردد في نفسه.. أربعة أيام.. أربعة أيام.

هو يعلم أنها تستعجل الرحيل من قلبه لا من بلاد شهدت حكايتهما.. كان على يقين أنها تهرب بعيداً عنه إلى مكان فرت منه إلى هنا ذات يوم.. هو من أوصلها إلى هذا اليأس.

كانت هذه الأفكار تعصر قلبه بشدة لتغرقه في دوامة من الحزن الأدكن.. لاشيء يدمي قلب الرجل مثل إحساسه أنه قد

سبب الأذى لامرأة أحبها.لم يكن يعلم وهو يخدش شغاف قلبها أنها بهذه الرقة.. وأن أي خدوش يعتبرها بسيطة كفيلة بزرع حدائق ألم دامية في كيانها. ربما لا يعلم جسامة ذنبه إذ لم يقدر رقة إحساسها يوماً، تلك الرقة التي كانت تحرص على إخفائها وراء قناع من شموخ غير قابل للاختراق.

كان يراقبها أينما حلت. يختار الزاوية التي تمكنه من التلصص عليها دون أن تشعر بوجوده، كان طيفها المتبتل يزرع في قلبه قنابل أسى عميق تنفجر مع كل نبضة.

في كل مرة يودع سعادته معها بسيجاراته.. يرى أجمل لحظاتهما من خلال الدخان الذي ينثره في الهواء.. يتأمل حزنها.. يتنصت على أحاديثها.. يحتاج أن يعلم عنها كل شيء، كما اعتادت أن تخبره بكل شيء. تغادر فلا يستطيع اللحاق بها.

جلست الصديقات بصالون شقتهما الصغيرة يحتسين أكواب القهوة الفرنسية لا يقطع صمتهن سوى قطرات المطر توقع نغماتها على زجاج النوافذ. رفعت بصرها نحو صديقتيها فانتبهت إلى أن جوليا غارقة في نحيب صامت، ونظرت إلى نور التي تبادلها نظرات الاستغراب.

تمتمت جوليا كأنها تناجي طيفاً غير مرئي:

- لن نتحمل فراقك.

- ولا أنا أتخيل حياتي بدونكما.

أضافت نور في محاولة فاشلة لتبديد ضباب الحزن المخيم على الصالون:

- لو كنت أنا من ستغادر ما عشنا هذه الدراما.

انزعجتا من حساسية نور الزائدة التي يصعب التأقلم معها.

قالت جوليا مازحة:

- أرجوك لا تبدئي حديثك عن إحساسك بالغربة بيننا وأن منايا تفضلني لأنني أقرب منها سنّاً وأدرس معها، بينما تنسى أنه يجمعكما الرابط الديني واللغوي والجغرافي والتاريخي نفسه...

قاطعتها نور بانزعاج:

- لكنني لم أقل هذا يوماً.

- أردفت جوليا بإصرار:

- عيناك تخذلانك وتفصحان عن كل شيء يا عزيزتي.

قالت نور بلهجة ساخرة:

- كم تمنيت أن أكون بارعة في قراءة لغة العيون مثلك.

ردت جوليا بلهجة تنم عن الندم على استفزار صديقتها:

- أنظروا إلى من تملك روح الفكاهة.

وتضحك الفتيات في وجه الحزن الرابض كجمل هرم.

قالت جوليا بجرأة محاولة تغيير مجرى الحديث:

- هل نسيته ؟

بادرت نور إلى التعليق:

- لا يبدو أنها فعلت، ولا نية لها في النسيان.. إنها تتلذذ بلسعات السياط.

كانت جوليا بسؤالها تمهد للحديث عن نفسها. أرادت تفجير صخور الصمت التي ناءت تحت ثقلها لسنوات.. أحست برغبة جامحة في الكلام وهي تحس أنها إذا سكتت اليوم، لن تجد شخصاً يفهمها أبداً. أرادت أن تكون قصتها عبرة لصديقتها، ربما تثنيها عن قرار صممت على المضي فيه إلى النهاية.

بدأت حديثها كأنها تحدث نفسها. لم يكن لكلامها

مقدمات. كانت تنظر في الفراغ وتداعب خصلات شعرها الحريرية المنسابة على جبينها الندي بقطرات عرق خجولة.

- ساذجة أنا لأنني حسبت أني أنتقم منه حين تخليت عن صفاتي التي أحبَّها فيَّ.. وكأن رحيله وحده لا يكفي. عزمت أن تغادرني الفتاة التي كنتُها والتي أحبَّها يوماً.. أردت أن تنسلخ عني وترحل معه.لم أعد أنا لأنه لم يعد هنا.. أكلم هذا وأضحك لحديث ذاك، وصرخات عقلي وقلبي وضميري تتعالى مستنكرة أفعالي.. توزعت مشاعري بين الرغبة في الانتقام منه والوفاء له.. بقيت عاجزة عن تبرير تصرفاتي.. عرفت قبله وبعده أنواعاً من الرجال، لكنني كنت في حضرته فتاة أخرى لم يعرفها أحد غيره. تخرس لساني هيبة حضوره وتذيب قلبي رنات ضحكاته. تمر معه الساعات كأنها ثوان، فلا أكتفي منه أبداً.. أعجز عن إلقاء نكتي الشهيرة بحضرته، أو الضحك بصوت عال كعادتي .كنت أكتفي بحديثه وأعلق حين يلح على ذلك.. أدركت معه معنى العشق، وأحسست بأشياء اعتقدت أنها ليست إلا من بنات أفكار الكتاب والمؤلفين. رحل وعدت أنا كما كنت أجتر حزني وألعق جراحي كقطة يتيمة.

سكتت جوليا، وحط الصمت ثقيلاً موحشاً. طأطأت الفتاتان رأسيهما..كانت تبكي في صمت وهما عاجزتان عن مواساتها. استغربتا كيف لم يسْلَم قلب هذه الفتاة الجميلة المحبة للحياة من التحطيم والتشظي؟

مرت الدقائق وئيدة ثقيلة. تدخلت منايا بصوت خافت مبحوح:

- غريب أمرنا نحن النساء، مهما اختلفت بيئتنا وثقافاتنا وأدياننا وعاداتنا، تبقى لغة قلوبنا موحدة.. نبكي لفراق الرجل ونتألم لهجره. ومهما بلغت قوتنا وثقتنا بأنفسنا نبقى مجرد ورقه تعصف بها الرياح العاتية دون رحمة.

فطنت نور إلى أن صديقتها لم ترد بتعليقها سؤال جوليا عن شيء يخصها لذا حذت حذوها وسكتت.

حاولت جوليا تغيير دفة الحديث:

- بما أنني فتحت قلبي فأنا أنتظر منكما الشيء نفسه.

قالت نور مازحة:

- كعادتك تجيدين المقايضة.

لم تكن جوليا بسؤالها تتوقع رداً صريحا من نور الكتوم..

شيء ما بين الفتاتين يحد من انسجامهما.. بل لولا وجود منايا ما كان ليكون بينهما هذا الشكل من التواصل.

كانت تحاول أن تعرف خطط منايا المستقبلية.. وهل هي فعلاً جادة في قرارها المصيري الذي اتخذته؟.. ولما لم تنجح في استنطاق الفتاتين، استسلمت أمام عنادهما معلنة:

- هكذا أنتم معشر العرب، تفكرون بصمت.. وغالباً ما تصلون إلى استنتاجات خاطئة تفاجئون بها العالم.

انطلقت كلمة «العرب» كشظية قذيفة أصابت عمق الشعور القومي لدى الفتاتين.. لأول مرة تحسان بقربهما من بعضهما.. أدركتا حتمية ذلك القرب، ورغم عدم تفاهمهما فإنهما منذورتان إلى العرق نفسه، وإلى اللغة نفسها.. إنهما عربيتان.

٢

لم ينم ليلتها.. جلس بشرفة منزله يراقب الأنوار.. وتلك متعة مضاعفة حيث هو. مدينة لا تنام كقلبه تماما. لا تهدأ كثورة مشاعره. هي واقع من الخيال كعلاقته بمنايا. يستمع مثلها وفي اللحظة ذاتها، ودونما تخطيط منهما لإحدى أغاني Lara Fabian مطربة يعشقانها معاً.. تذكر كل منهما أن لهما الذائقة ذاتها، وأنهما يتشابهان إلى حدّ كبير.. كل منهما يستمع إلى أغنية تترنم بكلمات تعبر عنه. عن حالته وعن تلك الفوضى التي خلقها به غياب الآخر.

كلمات أغنيته الهادئة تزلزل كيانه. عنوانها يختزل الحكاية.

Non.. Pas Sans Toi لا.. ليس بدونك.

صدق الكلمات يدمي قلبه.. تمنى في هذه اللحظة، لو استطاع أن يبعث إليها تلك الكلمات على أثير الليل، فتحس

بألمه من خلالها، وتعلم أنه أبداً لن يقوى على الفراق، وأن لا قوة لديه لتدمير هذا الحب. ليتها تستوعب أنه لا يستطيع فراقها، وأنه لن يكمل مسيرة الحياة بدونها. يعيد الاستماع إلى الأغنية ذاتها مرة تلو أخرى .. يعود ويخبر نفسه.. هي لن تصفح عني أبداً ولن تغفر .. يجب أن أبحث عن طريق للنسيان.. عليّ أن أحترم اختياراتها.

يحاول أن يهش على أفكار تنهش قلبه.. ما السبيل لنسيانها وكل ذرة من كيانه تحتفظ بومضة من ذكراها؟

هو لا يريدها، بل يحتاجها.. ما نريده قد نستطيع التخلي عنه، لكن ما نحتاجه لا يمكن أن نستغني عنه.

إنه الآن يتوق إلى فراق لائق لبدايتهما. يحتاج إلى تتويج النهاية بكثير من الصراخ وكثير من البكاء.. يهفو إلى دوي انفجار ينعى مشاعره.. يحتاج إلى مرافقة حبه لها إلى مثواه الأخير. يريد قبراً مناسباً لحبه يزوره كل يوم، يروي تربته بدموعه ثم يضع فوقه زهوراً بيضاء لا تعطيه الحياة لكنها تضفيها عليه.

هي أيام وترحل.. إلى حيث لا يمكنه اللحاق بها.. فكرة ابتعاد من المحبوب دون أمل في اللقاء مرة أخرى، تغرس

أشواك الحزن في حديقة القلب. أشواك تزرع بإحكام كي لا تنتزع.

منتصف الليل هو الوقت الملائم ليبعث رسالته. بضع كلمات كان يعلم أنها ستزلزل قلبها الأبيض، وتجعلها تعيد التفكير في مصيرهما معاً:

«كل عام وأنت مقيمة في قلبي».

منتصف الليل هو الوقت المثالي لتنسحب إلى غرفتها وتنفرد بنفسها. أفكارها الصاخبة تبعد النوم عن أجفانها.. تسترجع الذكريات التي باتت تقتات من كيانها.. تعود بها أغنية لارا فابيان إلى زمن مضى ولن يعود. العطر والموسيقى يرسخان الذكريات في أعماقنا إلى الأبد، ويبنيان حواجز متينة على دربنا إلى النسيان.

منذ عرفته وهي تعلم أنه الحب الأول والأخير في حياتها. وبعد الفراق باتت تحس أن أحلامها ستموت على عتبة الغياب، وستموت كل أطياف الأفراح وتقضي ظمأ على صحراء الروح.

سمعت الرنة الخافتة التي تبشر برسالة منه..لم تستوعب

للحظة أنها صادرة من هاتفها.. ربما هي جزء من خيالاتها الجامحة. فتحت الرسالة القصيرة وتراقصت الكلمات على شاشة هاتفها المحمول: «كل عام وأنت مقيمة في قلبي».

إنه يهنئها بسنوات عمرها الثامنة والعشرين. قرأت في رسالته أنها لن تكون مقيمة سوى في قلبه.. سنوات ثلاث احتفلت فيها برفقته بأعياد ميلادها.. طالما أهداها أشياء غريبة لم تفهم معناها إلا أخيراً.

في عيد ميلادها الخامس والعشرين أهداها عقداً ثميناً يبلغ عدد حباته اثنتين وستين حبة تتوسطها جوهرة جميلة.. انزعجت يومذاك من هديته الثمينة. أرادته أن يفهم أن الحب في عرفها لا يباع ولا يشترى، وأن قيمة الأشياء برمزيتها لا بثمنها. لم تقتنع بدفاعه عن نفسه إلا حين لفت انتباهها أن حبات العقد بعدد عمريهما معاً. لا تذكر أنها عشقت رقماً كما فعلت ذاك اليوم.كانت تردده بحب فتبتسم بخجل. منذ ذاك اليوم والحظ يبتسم لها في كل مرة تختار ما يحمل ذاك الرقم الذي صار رقم حظها.

في عيد ميلادها السادس والعشرين أهداها قطة

صغيرة رغم علمه بأنها لا تربطها بالقططة إلا علاقة نفور لا تفهم سببها. هي لا تحب القططة كما تخشى الاقتراب منها كثيراً.. رمقته بنظرة استغراب لتسأله:

- قطة؟؟

بهديته تلك أراد فرض سلطته عليها. أحس لذة عارمة وهو يراها تعشق لأجله ما لا تحب. ترعى ما لم تجرؤ على الاقتراب منه يوماً. تعطف على ما كانت تنفر منه.. أسعده تنازلها لأجله. وهي التي لم يرها تتنازل عن شيء إطلاقاً.

تفوق على نفسه بهديته في عيد ميلادها السابع والعشرين. لم تكتف بالاستغراب يومذاك، بل رفضت هديته رفضاً قاطعاً. لقد أهداها تذكرة سفر إلى بلد تعشقه.. اليونان.. لم تستوعب حينذاك جرأة هديته. لم تفهم استغرابه أمام رفضها. كيف توقع أن تفرط فتاة مثلها في مبادئها الثابتة وتسافر مع غريب؟

آلمه كثيراً أن تصفه بالغريب وهو الذي اعتقد دوماً أنه الأقرب إليها من نفسها. بررت وصفها له بالغريب بكونها قد رأته بأعين المجتمع لا بعينيها، فهو مهما اقترب منها يبقَ في نظرهم مجرد غريب.

أجابها مازحاً:

- فلنتزوج

- هل جننت!

لقد انتظرت عرضه طويلاً، لكن لم تتوقع أن يأتي في سياق حديث عابر.. أحست بخيبة أمل نجحت كثيراً في إخفائها. وبعد خصام لم يدم طويلاً اقتنع بكلامها بعد أن وعدته بالاحتفاظ بتذكرته تلك وقضاء يومهما في المطار استعداداً لرحلة لن تتم. هو لا يملك من الأفكار المجنونة سوى تلك التي أصيب بعدواها منها. لم يكن يحاول الشفاء من نوبات جنونه لأنه يعلم أنها تهواها. تغير لأجلها لدرجة أنه لم يعد يعرف نفسه. تغيره ذاك لايلمسه أحد غيرها. هو في حضرتها شخص آخر، وما أن يغادرها حتى يعود إلى صرامته.

اليوم هو يهديها جملة «كل عام وأنت مقيمة في قلبي».

إنه يهديها اعتذاراً. هديته هذه أثمن ما قد يهدي رجل لامرأة. أن يعتذر رجل مثله، اعتراف منه بأنوثتها. بحب يفصح عن نفسه، وبتمجيد لشخصها. ما يدمي قلبها أنها لا تستطيع قبوله. فجرمه في نظرها أكبر من كل عبارات الاعتذار.

رسالته فتحت الباب على مصراعيه لجموع المهنئين. الكل كان ينتظر منتصف الليل بالتوقيت الباريسي لتهنئتها.. جوليا ونور اكتفتا بأمنيات من القلب نزولاً عند رغبتها في عدم الاحتفال.

أغمضت عينيها وهي تردد «كل سنة وأنت مقيمة في قلبي».

الحب عادة يحرم العشاق لذة النوم التي ينقطعون فيها عن العالم لساعات ويبتعدون عن التفكير من أجل أن ينسوا كل شيء. ورغم أنها بسذاجة عاشقة حمَّلت قلبها ما لا يطيق، فقد كانت دوماً تعرف كيف تتحايل على الأرق وتحظى بنوم عميق يريحها إلى حين.

استيقظت على رنة ضيوف الهاتف الغرباء.. كما كانت منذ صباها لا تحب المفاجآت.. لذا عمدت إلى إلغاء عنصر المفاجأة من حياتها. بداءًا برنات الهاتف. خصصت لكل صديق رنة تميزه، ولكل الأرقام الغريبة رنيناً خاصاً.

- ألـــــووو.

جاءها صوت فاطمة يترنم بمرح:

Joyeux anniversaire .. Joyeux anniversaire

سألتها مستغربة:

- فطووووم؟

لم تستوعب كيف أن رقماً فرنسياً يحمل لها صوت أعز صديقاتها.

كانت تحتاجها دوماً إلى جانبها. وها هو القدر يتكرم عليها بالتفاتة.

حدثتها بفرحة عارمة. فطوم أنت هنا؟ لماذا لم تخبريني من قبل؟

- تعمدت أن أفاجئك متلبسة بالاستغراق في نوم لذيذ.

إنها تعرف صديقتها. تعلم أنها تتهرب مما لا تريد الإفصاح عنه فتلجأ إلى المزاح.

أعادت سؤالها بعناد:

- لماذا أنت هنا؟

لم تستطع فاطمة إخفاء أمر سينفضح عاجلاً أم آجلاً. لم ترد أن تهدي صديقتها وجعاً فوق رزمة أوجاعها. مع ذلك وجدت نفسها ترد:

- جئت مع والدتي للتبضع استعداداً لزواج خالد.

أحدث الاسم جلبة في ذاكرتها. سيتزوج إذن. كانت تعلم أنها انتهت من حبه منذ سنوات. لكنها لم تكن تعتقد أنه سيتوقف عن حبها يوماً. إنه غرور الأنثى.

إن لذكرى التجربة الأولى وقعاً نحاسياً على النفس لايزول رنينه. لا ينسى الإنسان أبداً وجهته الأولى لغير بلده. لا ينسى أول لقاء. ولا ينسى بلا شك أول حب. في أيام مضت قبل أن تشفى منه، أخبرتها فاطمة أن عذرية الحب كالذي جمعها به، ما عاد في ألفيتنا يرقى إلى مستوى الحب. وأكدت الأيام أن ذاك الحب ما هو إلا إعجاب قد زال وانتهى بسرعة.

هي من اختارت أن تنهي علاقتها به. تماماً كما تفعل اليوم بغيره.. وكأنها تتعمد جعل الزمان يعيد نفسه.

أقدارها تكتب عليها الحب خارج الحدود. لاس بالماس.. زارتها يوماً لتشفى، فإذا هي تغادرها خوفاً من الموت. كانت تسمع الكثير عن هذه المدينة، لكنها لم تتوقع قطّ أن تشهد تاريخ حكايتها. زارتها بحثاً عن الأمان بعد أن خيل إليها أن التعاسة قد كتبت عليها إلى الأبد. لم تكن زيارة سياحية

بقدر ما كانت هرباً من شقاء محموم. استجابت لإلحاح أختها التي تقطن هناك وذهبت بحثاً عن نسمة فرح.

كان لزوج أختها دور كبير في اندماجها السريع بالمدينة، أعجب بفطنتها وذكاءها ولهفتها لمعرفة كل ما من شأنه أن يزيد من رصيدها المعرفي. وقعت في غرام المدينة منذ اليوم الأول.

لاس بالماس التي تقع شمال غرب الصحراء المغربية وعاصمة جزيرة الكناري الكبرى، وواحدة من البلديات الواحدة والعشرين التي تكوّن الجزيرة ..كانت أجمل مما تخيلتها بكثير.

قالت لها أختها بابتسامة مرحة:

- ألم أقل لك إنك ستحبينها؟

لم تكن تعلم أن هذه المدينة الجميلة ستشهد حكاية بطعم التعاسة التي تجرعتها في علاقتها بخالد. ندمت كثيراً لانجرافها وراء إحساسها لتسبح ضد تيار فكرها وعقيدتها، وتتخلى عن مبادئها التي آمنت بها كثيرا، ومنها أن الحب هو ذاك الذي يأتي بعد الزواج.

كانت فاطمة في مثل عمرها وتشبهها إلى حد كبير وهي

ابنة أحد جيران أختها، وتدرس في واحد من معاهد لاس بالماس. توطدت الصداقة بينهما، ووجدت نفسها تخبر صديقتها الجديدة بكل صغيرة وكبيرة في حياتها، حتى نظرتها إلى المستقبل تحدثها عن كل شيء، وقد وجدت فيها شخصاً يستحق الثقة ومتفهماً جداً، وكذلك كانت هي خير مستمع تنصت لمشاكل صديقتها باهتمام بالغ، تساعدها بنصائحها وخبرتها القليلة في الحياة قدر المستطاع.

سألتها فاطمة يومها:

- ماذا ستفعلين الآن؟

أجابتها منايا بحزن:

- مجبرة أنا على الانسحاب من علاقة لا نهاية لها.

- أيتفهم خالد قرارك هذا؟

- لا أعلم

لم تكن فاطمة تنتظر إجابة صريحة من صديقتها، فهي تعلم أن أخاها بأنانيته المعروفة لن يتفهم شيئاً، وحتى لن يكلف نفسه عناء محاولة اكتشاف سبب قرار صديقتها المفاجئ. صحيح أنها أحياناً تعتقد أنه يحبها بصدق، لكن حبه لها لم يغير

منه شيئاً قطّ، عكسها هي التي غيرت الكثير من نفسها وآرائها وحتى قناعاتها، علَّها ترقى لمواصفات حبيبته المرسومة في خياله. لم يكن شيء في شخصية منايا البريئة يغري رجلاً مثله، لذا عزمت بمساعدة فاطمة على تغيير نفسها، تلبس ما يحب من ألوان، وتتكلم بالطريقة التي تروقه، وتدعي الاقتناع بآرائه السياسية. تحرك رأسها طرباً مع أغانيه الصاخبة التي كانت تكرهها وتصفق بحرارة لغنائه النشاز. تستمع لقصصه التافهة بتأثر مصطنع.كانت علاقتهما تتمحور حوله. لم يكن يسألها عن حياتها ووآمالها وآلامها، ولم تكن هي لتعكر لقاءهما بقصص مماثلة. نسجت بخيالها المتواضع علاقات حب أخبرته عنها حين أكد لها أن فكرة أن يكون الرجل الأول في حياة حبيبته لا تغريه. كانت تقول وتفعل ما يريده دون تردد. تعامله وكأنها فتاة أخرى لا تعرفها، بل لا تعجبها أفعالها. كان هو مثالاً للرجل الذي طالما تمنته. كان رجلاً يتناقض تماماً مع شخصيتها. شخصاً جريئاً يروض غرورها، فهي مؤمنة بأن تناقض أطراف أي علاقة عامل لإنجاحها، إلا أن اختلافها عنه

كلفها الكثير، فهو لم يكن ليرضى بأقل مما يريد، خصوصاً وأنه عرف من النساء ما لا يعد ولا يحصى.

سألته ذات مرة بخجل عن سبب عدم زواجه. تمنت لو أنه يخبرها بأنها عروسه التي انتظرها إلا أنه فاجأها يومذاك بأن حياة العزوبة تروق له كثيراً، ولا نية له في دخول السجن عن طيب خاطر. ضحكت كعادتها وقلبها يعتصر ألماً. أيكون قفصها الذهبي الذي تحلم بدخوله منذ سنين هو نفسه سجنه الذي يخشاه.

غادرت لاس بالماس هاربة من لقاء قد يجمعها به. جلست في قاعة الانتظار مع أختها وأولادها إلى أن يتمم الصالح إجراءات السفر. وإذا بها تصعق عند رؤيته. كان خالد يتقدم ببطء تجاههما مع أخته التي كانت تلوح بيدها وكأنها تعنفه أو تتشاجر معه. اقترب وسلم عليهم ببرود صدمها. أحست لدقائق أن المطار الكبير خالٍ تماماً إلا منهما. جلست تناظر وجهه الوسيم، وطوله المتوسط وتتنشق عطره الذي تفضله. لم ينجح في إخفاء تردده البادي في كل حركاته. لم تسمع سهام تستأذنها للذهاب حيث الصالح، ولا فاطمة وهي

تخبرها كم ستشتاق إليها. كان هو من ترى وتسمع، حتى إنها لم تشعر بنفسها وهي تناديه باسمه:

- خالد..

- نعم

- آسفة..

- أتمنى لك الخير والسعادة في حياتك..

ردت باكية:

- أنا كذلك

ابتعد مسرعاً.. فهو لا يقوى على دموع امرأة وبخاصة المرأة التي اعتقد أنه يحبها. ودعت صديقتها بحزن بعد أن وعدتها باستمرار التواصل بينهما.

لم تكن لتسمح لذكرى خالد أن تعكر صفو لقائها بفاطمة.

وحدها الصداقة تلغي المسافات..الأصدقاء أينما كانوا ومهما جرفهم تيار الغياب، فإننا نبقى على اتصال بهم، ونكتفي بالحديث معهم إلكترونياً إلى أن يجود القدر علينا بهبة اللقاء.

استضافت صديقتها فاطمة، وأمضت معها يوماً كاملاً تعرّفها على مدينة كانت تحكي لها عنها طوال أربع سنوات.

- فاطمة..لم يخطر ببالي يوماً أننا سنلتقي هنا. أتذكرين كم خططنا للقاءات في أماكن أخرى ومع ذلك فشلنا؟

- هو القدر عزيزتي. صالحني هذه المرة فجاد عليّ بلقائك. لا أعلم كيف كنت سأمضي الأيام القادمة لولا مجيئك.

قالت فاطمة بحزن:

- لكنني سأعود إلى لاس بالماس بعد غد.

- تأتين اليوم لتعودي بعد غد؟ كيف؟

- مجبرة حبيبتي. ولولا زواج أخي ما كنت لأستطيع المجيء.

قرر خالد أخيراً الزواج. لقد قرر أن يحارب ذكراها بامرأة أخرى تراقبه ليل نهار. وتسعى لتدمير طيف كل أنثى غيرها بداخله. هو اليوم يحتاج إلى أن يلبي رغبة ألحَّت عليه منذ سنوات. يريد الإجابة على سؤال راوده سنينَ. يحتاج أن يعلم كيف حالها في غيابه.

أن يهجر الرجل دون أسباب، فعل لا يسترعي الانتباه كثيراً، ولا يخلف زوبعة أسئلة، عكس المرأة التي خلقت لتعيش آخر لحظات الحكاية، وتبتلع وحدها ما تبقى من فتات

الذكريات. إنه يستنكر عليها هروبها من علاقة كان يريد أن ينهيها هو بطريقته. لقد سددت ضربة قوية إلى كرامته، فتجرأت على تركه دون إعطائه فرصة للتبرير، وجعلته وحده يبتلع أعذاره.

لم يكن ليسامحها أو يطلب منها السماح، فهو في قصته معها ظالم ومظلوم، سجين وجلاد. هي الأنثى الوحيدة التي استوقفته وزرعت في ذهنه أسئلة ليس لها جواب. لم يكن يعلم إن كان قد أحبها، لكنه على يقين أن الوجع صادقه مذ رحلت.

مر اليومان سريعين ككل الأيام الاستثنائية. رحلت صديقتها لتعود هي كما كانت وحيدة تحاور قلبها العليل، وتحاول إقناعه بما لم يقتنع به عقلها. القلب هو المبشر ببداية الحب وبنهايته. هو مرصد النشرة الجوية المفصلة لأحوال الحب. وقلبها هذه المرة عصف بكل إحساساتها الجميلة إلى المجهول.

٣

يومان وتعود إلى وطنها. قلبها هذه المرة لا يبشر بهدوء ولا بأحوال جيدة. لا تلوح في الأفق سوى سحب ثقيلة تنذر بعواصف رعدية، وأعاصير مدمرة.

الإنسان لا يفكر في شيئين في الوقت نفسه. لن تقضي هذين اليومين في البكاء. ستودع هذه المدينة وتعود بالشهادة التي أتت من أجلها، وسينسيها النجاح فشلها في الحب. ستوضب أوجاعها في حقائب، مرتبة كتلك التي أعدتها لملابسها. ستحرص على إقفالها الآن، وستبعثر محتوياتها حين تصل.

كل عام وأنت مقيمة في قلبي. لم تكلف نفسها الرد عليه. يعاتبها قلبها لأنها لم تكلف نفسها الرد عليه.

محتارة هي.. أتغفر له فتهين نفسها. أم تتركه فتعذبها.

ولأنها امرأة ترضى بالعذاب حتى لا تقبل الإهانة فقد قررت الرحيل. تمنت أن تتبع قلبها وتلغي سلطة العقل. هذا العقل الذي تجد نفسها في كل مرة مجبرة على التشاور معه.. ليملي عليها في كل مرة ما لاتحب.

خلدت إلى نوم عميق بعدما اطمئنت إلى أن فاطمة قد وصلت إلى إسبانيا. في الصباح قررت وضع أولى خطواتها عل طريق الوداع. ستزور جارتها المصرية جيهان ومن ثم تذهب للقاء صديقاتها في المقهى المعتاد.

كانت جيهان شاحبة، تهمي من عينيها دموع حائرة.لم تتوقع رؤيتها على تلك الحال في يوم مشرق كهذا. قبل أيام فقط تحقق نصرها الكبير، وحقق الثوار مطلبهم، وانتهى عهد حسني مبارك.

لم تكن لمنايا ثقافة سياسية واسعة، لكنها بحدسها تعلم أن العرب لا يعيشون ربيعاً.. كانت على يقين أنها باقة زهور مخضبة بالدم ألقاها الزمان على وجوههم، وسرعان ما ستذبل.

سألتها:

- جيهان عزيزتي ما بك.

كانت تعلم أن وداعها ليس سبباً في خلق أسى كهذا في قلب جارتها، فعلاقتهما لم تتجاوز علاقة جار بجاره الطيب.

- ما بك ؟

أعاد السؤال جيهان إلى الأمس القريب حين اختلطت عليها الأمور كثيراً. تبددت قناعتها، وضاع الحق الذي لم يأتِ بعد.

تذكرت كيف كانت تتظاهر رفقة أبناء وطنها وقلة من العرب متضامنين معهم أمام السفارة المصرية بفرنسا ينددون بالنظام ويطالبون بسقوطه.

كانت تصرخ مع بقية المتظاهرين بصدق: «الشعب يريد إسقاط النظام»...

اقترب منها صحفي بعدما رأى حرصها على إتمام مراسيم التظاهرة حتى النهاية:

- لماذا تودون إسقاط النظام؟

أجابته جيهان بتردد:

- لأنها إرادة الشعب.

- وماذا بعد سقوط النظام؟

مرت دقائق مشحونة بأسئلة لم تعرف لها جواباً.. تفشى بعدها خبر سقوط النظام.. تعالت صيحات النصر.. لكنها لم تشارك هذه المرة.. ظلت شاردة وسؤال الصحفي يتردد في ذهنها:

- «ماذا بعد النظام؟».

انتبهت إلى أنها ربما دافعت عن قضية ليست قضيتها. وقد أدركت ذلك متأخرة.. متأخرة جداً. هي تعلم أن المواطن العربي خلق كي يظلم ويستعبد. وأن هناك دائماً ظالماً يختبئ بين صفوف المطالبين بالحقوق، يتحين فرصة القضاء على ظالم آخر ليطفو على السطح، ليجرب آلات ظلمه على الرقاب والعباد.

الحرب في عالمنا ليست بين الخير والشر.. بل هي بين الأشرار أنفسهم. كل واحد يملك من الشر ما يميزه عن الآخر. كل له استراتجيته الخاصة لحقن سمه في قلب غريمه، والضحية دائمة هي الشعوب. تذكرت قول جدتها:

- ويْلٌ للضفادع إذا تعاركت الجِمال وسط البِركة.

لم تستوعب جيهان ولا منايا كيف أن الشعوب

العربية أدركت في وقت واحد الظلم الواقع عليها، وكيف تفشت حمى الثورات بهذه السرعة. كأنها جرثومة خبيثة زرعها أحدهم في حي سكني وانتشرت سمومها في العالم العربي بأكمله، وشوهت الأنظمة كلها، فأصبح زعيم الأمس مرفوضاً اليوم. ربما حتى الزعماء أنفسهم لم يفهموا سر توحد الشعوب المفاجئ للمطالبة بالحق المسكوت عنه لعقود، لذلك ترددت جملة فهمتكم كثيراً على لسان أحدهم لكن بعد فوات الأوان.

كانت منايا تكره السياسة دائماً، ولم تحاول قط خوض غمارها، ومع ذلك فقدت بسببها صديقتين عزيزتين .أحست الألم ذاته الذي غزاها منذ سنوات مضت. يومها كانت في بيت غريب عنها. بيت أبيها الذي لم يكلف نفسه يوماً عناء السؤال عنها، وهي ابنته التي تخلى عن أمها من أجل امرأة أخرى.

تتذكر ذلك اليوم حين وقفت أمام مرآتها تتأمل نفسها وكأنها ترى صورتها لأول مرة، بعيون تحيطها هالات سوداء وشعر متقصف منسدل على كتفيها بإهمال، وأنفها الصغير المحمر من كثرة البكاء.لم تكن تقاطيع وجهها الجميل تدل

إلا على الحزن والألم، فشكلت مع حنايا جسمها النحيل تلك الصورة المنعكسة على المرآة، فكانت أقرب إلى صورة شبح.

قالت محدثة نفسها بصوت مرتفع، مقلدة طريقة منى حين تناديها:

- منايا ماذا أصابك ياحبيبتي ؟

جاء صوتها مكسوراً مبحوحاً. ابتسمت بألم. طافت بها ذكرى منى وهزت أعمدة السكينة في نفسها. تذكرت منى الصديقة والأخت، فتنهدت وعادت إلى سريرها بخطى ثقيلة. استلقت فوق فراشها وأخذت تقلب عينيها في سقف الغرفة علها تعثر فيه على طيف أقرب الناس إليها. أمسكت رأسها بيديها محاولة طرد الذكريات اللئيمة الأليمة، ثم لجأت إلى دمعها المنهمر، علَّه يطفئ بعض الأوار المتقد بين جوانحها.

كانت تبحث في مخيلتها عن ذنب اقترفته، عساها تقنع نفسها بأن ما تعيشه من أرزاء، إنما هو جزاء مستحق. لكنها في كل مرة تفشل في الوصول إلى تعليلات مقنعة.

صار التغيير المفاجئ الذي عرفته حياتها مصدر قلقها واضطراب نفسيتها، رغم محاولاتها التأقلم مع وضعها

الجديد. محاولات تخبئ بين طياتها ما لا نهاية له من الأحاسيس والصراعات النفسية.. كيف لا وقد كانت تعتقد بالأمس أنها الأوفر حظاً في هذا الكون، وهي محاطة بأحب الناس إلى قلبها.

فجأة وجدت نفسها وحيدة تعيش مع أشخاص لم تكن تراهم في السنة سوى مرات قليلة.. احتاجت إلى من يفهمها ويحس بها أو حتى من يتظاهر بذلك. كانت في أمس الحاجة إلى شخص يخبرها بأن هذه المرحلة ستمضي كسحابة صيف. ولأنها لم تجد ذلك الشخص، فقد جعلت مشاعرها سجينة قلبها الصغير، وترجمت آلامها بابتسامات هادئة ودموع صامتة، ومع مرور الأيام تعودت على فقدان إنسانتين كانتا أحب الناس إليها. لم تكن تتخيل أن نقطة تحول حياتها ستأتي بتلك السرعة وبذلك السواد، وكيف ابتدأت المصائب تنهال عليها منذ اليوم الذي اتصلت فيه رباب بصوتها المشبع رعباً، لتطمئن أنهن في البيت.

بعد حصولها على الباكالوريا، سافرت منايا مع صديقتيها منى وربيعة إلى مدينة أكادير لمتابع دراستهن الجامعية. لأول

مرة سيختبرن أنفسهن بعدما أصبحن قادرات على التحكم بمفردهن في اختياراتهن وقراراتهن، بعيدا عن أعين المجتمع الصحراوي. فلا الأهل ولا التقاليد ولا حتى أسرهن تستطيع الآن أن تملي عليهن ما يفعلن وما سيفعلن. فترة الجامعة لغالبية بنات الصحراء المغربية فرصة ذهبية للابتعاد عن سطوة الأهل، لاكتشاف الذات والتعرف على عوالم جديدة لم تتح لهن فرصة اكتشافها من قبل.

استأجرن بيتا صغيرا، قريبا من كلية العلوم القانونية والاقتصادية التي تدرس فيها رفقة ربيعة، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية التي تدرس فيها منى.. سالت سنوات الدراسة الجامعية سريعاً كنهر جارف، ولم يعد يفصلهن عن التخرج سوى نتائج آخر فصل دراسي. جلست منايا يومذاك تنتظر عودة صديقتيها من بيت خالة منى،كما كانت تعتقد، فجأة اتصلت رباب تسأل عن منى وربيعة.

ردت عليها باستغراب:

- لا ليستا في البيت.. ماذا هناك ؟

قالت رباب والخوف يطبع نبرات صوتها:

- أقفلي البيت جيداً وإياك أن تلبسي أي زي صحراوي، واتصلي بالبنات وأخبريهن أن يبقين حيث هن، فقد اتصل بي أخي تواً ليخبرني أن قوات التدخل السريع قد طوقت الجامعة ودخلت في اشتباكات مع الطلبة المتظاهرين أمام الكلية.

أقفلت رباب الخط مسرعة لكي تكمل مسيرة اتصالاتها وتحذر كما العادة أكبر عدد ممكن من الطالبات اللواتي تعرفهن قبل أن يذهبن إلى محاضراتهن، لينلن حظهن من السب والشتم والضرب.

قوات التدخل السريع لا تميز بين المتظاهرين وغيرهم.. الأوامر هي تفريق جمهرة الطلبة، وكعادتها في إنجاز المهمة فرقت المتظاهرين في بضع سويعات، تخللها قتلى وجرحى، واعتقلت الرؤوس المخططة للتظاهرة. حتى الذين اكتفوا بالتخطيط من بعيد لم يسلموا من الاعتقال.

ظلت تتصل بصديقتيها لساعات دون جدوى.. حاولت مواساة نفسها، وإقناعها بأنهما انشغلتا بالحديث ولم يسمعا رنات هاتفيهما. سمعت طرقاً خفيفاً على الباب وأجابت بحذر:

ـ من؟

كان صوت رباب يتقدم أصواتاً كثيرة خلفها:

- افتحي أنا رباب.

حاولت إقناع نفسها أن صوت رباب لا تشوبه شائبة، وأن خوفها جعلها تسمع أصوات البكاء والصراخ تتعالى في الخارج. وضعت يدها اليمنى على أكرة الباب، واليسرى على قلبها الذي يخفق بشدة. بعد ثوان فتحت ببطء لتجد كل ما تصورته متمثلاً أمامها. رباب شاحبة الوجه محمرة العينين، ومجموعة من البنات معها يبكين ويتوعدن ويصرخن. انهارت رباب أمام عتبة المنزل والأصوات من حولها تتعالى:

- ماتت منى.. ماتت منى..

بعد هذا اليوم توجهت منايا إلى مطار أكادير لتستقل الطائرة إلى الرباط نزولاً عند رغبة أبيها. ظلت طوال الرحلة القصيرة تتذكر منى الأخت والصديقة.. تذكرت أحاديثها الساذجة وأحلامها البريئة وبلادتها المضحكة.. بكت شباب صديقتها المهدور بمرارة. ابتسمت بمرارة وهي تتذكر ما كتب أحد المواقع بخط عريض: «استشهاد بطلي قضيتنا مستبسلين في الدفاع عن أرض الوطن. ننعى اليوم فلذات أكبادنا فيصل ولد أبا جدو ومنى سيدي هيبة».

سألت نفسها أتتوج منى بطلة لقضية لم تكن قطّ قضيتها؟ وهل ترقى مجموعة من الادعاءات لأن تكون قضية.. كثيرة هي التساؤلات التي بدأت تنخر ذهنها ولم تعرف لها إجابة، إلا أنها كانت متأكدة أن منى لم تشارك في التظاهرة إلا نزولاً عند رغبة ربيعة التي اشتهرت بأفكارها «الثورية». لذلك قطعت علاقتها بها، فقد غدت في نظرها مسؤولة عن مقتل منى.

وجدت ابن عمها سيداتي بانتظارها في مطار الرباط ليوصلها إلى البيت؛ حييته باقتضاب وأجابت على سؤاله عن حالها بإيجاز أخرسه. استغربت تصرف والدها، فهو وإن كان لا يبخل عليها مادياً، إلا أن علاقتها به لم ترْقَ إلى المعنى الروحي لعلاقة الأب بابنته.

وصلت بعد بضع دقائق إلى فيلا والدها الفاخرة في حيّ الرياض، واتجهت فوراً لمقابلته علها تفهم طلب رؤيتها المفاجئ، ولتستأذنه ليسمح لها بالذهاب إلى العيون حيث تقطن والدتها. ذلك أن أحاديثها التلفونية معها في الآونة الأخيرة لم تكن مُطَمْئِنَة. قبلت يده وجلست متربعة بجانبه. ضم رأسها بيديه وحضنها لأول مرة منذ سنين. دمعت عيناه شفقة عليها.

استغربت تخليه عن صوته الجهوري وهيبته ووقاره، فتوجست شراً من بكائه الصامت وتردده البين. كان يبحث عن الكلمات المناسبة التي تواسي فلذة كبده إلا أن الكلمات كانت تموت على لسانه قبل أن ينطق بها. رفعت إليه عينيها بتوسل فرأت في وجهه حناناً لم تعتقد يوماً أنه يمتلكه . أخافتها رؤيته على تلك الحال. أخبرها بعد تردد طويل بما استطاع أن يصوغه من كلمات مفككة، أنهم اضطروا إلى نقل والدتها إلى العاصمة لاستكمال علاجها لاستحالة ذلك في مدينة العيون.

- مِمَّ تشكو أمي؟ ولماذا أنا آخر من يعلم؟

أخبرها أنها مصابة بسرطان الثدي، وأن المرض في حالاته المتقدمة، وأنهم لم يخبروها بذلك نزولاً عند رغبة والدتها التي لم ترد أن يلهيها شيء عن آخر سنة دراسية لها، لكن الأطباء بدأوا ييأسون من حالتها خصوصاً وأنها رفضت السفر إلى الخارج، مما اضطرهم إلى إخبار منايا.

توجهت إلى مستشفى الشيخ زايد حيث ترقد والدتها، لكن لم يسمح لها بزيارتها إلا بعد ساعتين، فتوجهت إلى الطبيب المسؤول عن علاجها علها تفهم منه حالتها الصحية.

- سرطان الثدي عند والدتك من النوع المنتشر والكبد هو ثالث مكان يصل إليه هذا النوع من السرطان بعد العظام والرئتين، وتتفاقم الأعراض وبخاصة الألم بعد انتقاله إلى الكبد، لأنه يخرب نسيجه الطبيعي ويحل مكانه فيحدث تمطط وتمدد للغلاف أو المحفظة المحيطة بالكبد.

لم تفهم كلام الدكتور.. سألته بصوت مبحوح كله رجاء.

- دكتور أخبرني أرجوك.. هل والدتي ستشفى ؟

لم يكلف الدكتور نفسه مواساة الفتاة الباكية أمامه ولم يراعِ حالتها المزريّة، فبرنامجه اليومي المكتظ بمختلف أنواع المرضى وظروف العمل الصعبة جعلت تعامله مع أقارب مرضاه خالياً من أي مشاعر أو مواساة.. ألقى أمامها بالحقيقة كما هي:

- للأسف.. لو أنهم في العيون شخصوا مرض والدتك مبكراً لتمكنا من علاجها، ثم إن الأدوية التقليدية التي كانت تستعملها قبل المجيء إلينا أضرت بصحتها كثيراً، ونحن في وضعها الحالي لا نملك إلا أن نقدم لها معالجة تهدف إلى أمرين، الأول إطالة مدة حياة المريضة بعد إرادة الله عز

وجل، وذلك عبر التقليل من حجم الأورام المنتقلة وإضعاف تكاثرها. والثاني تخفيف معاناتها بالمعالجة الملطفة والتي تعني إعطاء المسكنات للسيطرة على الألم.

غادر الدكتور وتركها غارقة في بحار من الحيرة والألم، وبعد شهرين توفيت والدتها وتوارى سندها في هذه الحياة.

عادت منايا إلى العيون بعد انتهاء مراسم العزاء الذي حضره جمع غفير، لم يفلح في انتشال المسكينة من حالتها النفسية المؤلمة، حتى إن أحد عمومتها نصح والدها بعرضها على طبيب نفساني. قاومت رغبتها في الرد على اتصالات ربيعة، فهي بحاجة إلى شخص تعرفه لتشكو له همومها.

عند وصولها إلى العيون كانت تراقب شوارع مدينتها وكأنها تراها لأول مرة.. انتبهت لشاحنات العسكر التي تطوق المدينة المشاغبة..لم يعد في قلبها هذه المرة ذرة حنين لهذه المدينة، فلأجلها ماتت منى، وبسبب إهمالها وجهلها توفيت والدتها.

كان شريط سنوات من عمرها يمر في مخيلتها بطيئاً فتحس كأنها تعيش الأحداث مرة أخرى، بحزنها وكآبتها وألمها.

انتشلها صوت جيهان من الشرود في أحراش ذكرياتها مستفسرة:

- عزيزتي منايا.. هل تبكين؟

سألتها ولم تنتظر الإجابة.. هي لا تسألها إذا كانت تبكي أم لا، بل تبحث عن سبب بكائها.

هكذا نحن نسأل عن أمور وغايتنا معرفة أشياء أخرى. نغلف أسئلتنا بالبراءة كي لا تفوح منها رائحة الفضول الخبيثة. لم تعرف بما ترد. فالإنسان عادة يسعد وهو عائد إلى أرض الوطن بعد غربة. يفرح بمسؤولية تحملها فنجح فيها. هي لم تكن سعيدة.. كانت كلما ودعت شخصاً أو مكاناً، تعلم أن لاعودة ترتجى، وأن لا لقاء يؤمل.

كان الحب دائماً وجهاً لعملة التسامح والغفران، ومع ذلك لم يساعدها هذا الحب على المغفرة كي توصلها إلى حدود التسامح. نبهتها جوليا أنها من آثرت الرحيل وبيدها وحدها قرار العودة.

سألت نفسها: كيف لرجل واضح مثله أن يخفي وراءه كل هذه التلال من الغموض؟.

٤

هو في الحقيقة لم يكن واضحاً يوماً. بل كان بارعاً في إخفاء نفسه ونزعاته وغاياته. يسعى للوصول إلى ما يريد بخطى ثابتة. لم يستسلم لإعصار الحب الذي خلفته رؤيته لها لأول مرة. قاوم أمواجه العاتية بصبر. لم يكن ليعلن شعوره وأحاسيسه ومحبته، فهو معتاد على رمي الطعم لفريسته لينتظرها حتى تأتي لتتوسل إليه نسغ الحياة. لم يعطِ لامرأة يوماً شرف ملاحقتها دون أن تطلب هي ذلك أو توحي له به. حرم النساء من لذة صد رجل مثله. ورغم أن كل شيء فيها كان ينذره بأنها أنثى استثنائية لم يتعامل مع مثلها يوماً، إلا أنه لم يكن ليعاملها بطريقة مختلفة عما كان يعامل بها غيرها من قبل.

مذ رآها حرص على أن تراه دوماً. حرص على التواجد في كل مكان تزوره. أصبح روتين أيامها المتجدد. لم يقترب

كثيراً ولم يبتعد أيضاً. لم يعلم وهو يرسم خططه ويحيطها بشباكه أنه يقع معها في شراك الحب نفسها.. بجمالها الهادئ وابتسامتها الساحرة ومرحها البريء تخلف في روحه جيوش محبة لا تتراجع.

التقته ذات لحظة.. كانت رفقة جوليا في مطار شارل ديغول يودعان نور العائدة في إجازة إلى وطنها.. يبدو أنه وصل تواً من رحلة ما.. كل شيء فيه يدل على الثراء. نظراته الضيقة لما حوله وكأنه اكتفى من رؤية العالم. أنيق بحقيبته الجلدية الصغيرة، وبذلته المتناسقة. لو لم تره بتلك الجدية لجزمت أنه أتى من بحر «الكاريبي». وإلا من أين اكتسب سمرته الصافية كشمس أشرقت على أرض انهكها توالي الأمطار. رجل أربعيني.. ربما في أواخر الثلاثين.. تحدث نفسها عنه وكأنها ملزمة بمعرفة كل التفاصيل المتعلّقة به.. رحل مسرعاً.لم يمهلها حتى تتبين حقيقته وهو الغريب المألوف.

لسبب ما لم تفارق صورته خيالها.. تنهر نفسها مازحة:

- مجنونة

إنها مجنونة به فعلاً.. مجنونة لأنها تتبع عقلها فتتركه..

العاقل هو الذي يجنب نفسه الوجع لا الذي يرمي بنفسه إلى التهلكة عن طيب خاطر.

مذ رأته لم تعد ترى سواه. وكأن العالم كله مختزل في شخصه. تراه في كل مكان تذهب إليه. يسبقها طيفه إلى البيت ليحاصرها ويشل تفكيرها. لم تكن تعلم أنها تبتلع الطعم المسموم عن طيب خاطر. هي تعتقد أن القدر يبتسم لها فيجمعها به في كل مكان. لم يطرأ ببالها ولو للحظة، أنه من يخطط لكل تلك اللقاءات. نجح في زرع نواة الإعصار في قلبها، فتذوقت خمرة الحب المسكرة، لكنها لم تصل إلى حدود الهذيان.

كيف تجرؤ فتاة ببساطتها على مقاومة رجل مثله.لم يفهم من أين لها تلك القوة.لم تمنحه يوماً إحدى ابتساماتها الخلابة. ولم تتحدث إليه قط. أتنتظر أن يبادر هو إلى ذلك؟

أي قوة قد تختزلها براءة الأنثى؟ وأي شجاعة تملكها هذه الأنثى.

ثبتت أمامه كما فعل معها.. اكتفت بالوقوف شامخة على قمة الجبل ..تنظر إلى الأنوار المتلألئة من بعيد. لن تنزل إلا إذا جثا عند قدميها.

كان خطأه القاتل، اعتقاده أن الحب ليس بحرب تحتاج إلى خطط، بل هو اقتحام لأمواج السعادة دون تفكير. لنـــتحمل بعد ذلك العواقب وحدنا.

ولأنه رجل أفكار، فهو لا يؤمن سوى بنتيجة حسابات طويلة معقدة. لذلك قرر أن يدخل تعديلات بسيطة على مخططه.. سيبادر بالحديث إليها، وبعدها سيترك لها مهمة الاعتراف بحبه.أما هو فلن يعترف لأنثى بما في قلبه.. لن يعطيها حق إهانته، أو المطالبة بحقوق أخر ى.

في كل علاقاته الكثيرة.. لا يذكر أنه بادر إلى استجداء الحب من أنثى. يكفي أن تعجبه حتى يجعلها تعترف له بإعجابها هي بكل تلقائية. وحين ينتهي كل شيء، يجعلها تتجرع مرارة الخيبة بمفردها. هو سجان يعتقد أنه يعلم عن سجنه الكثير، وينسى أن سجينه القابع في زنزانته، هو وحده من يعلم معنى أن يفقد الإنسان حريته.

قرر أخيراً الاقتراب.. حديث مختزل في بضع كلمات. كان يعلم انها ستفتح شهيتها للكلام.

جلسا على كرسيين متجاورين، يتابعان فيلماً أمريكياً

مترجماً إلى اللغة الفرنسية.لم تهتم كعادتها بسوء الترجمة، ولم تتذمر من اكتظاظ قاعة السينما. كادت تموت من قربه الذي فاجأها. اشتد وجيب قلبها المجنون، وانشدت أعصابها بقوة. بينما عيناها ترجوانها النظر إليه. كانا يتقاسمان الحالة النفسية نفسها، إلا أن كلاً منهما يكابر ويحاول إظهار الهدوء والرزانة والاستمتاع بمشاهد الفيلم.

إنها تشبهه إلى حد كبير.. عنيدة وبارعة في معاندة نفسها. لها سلطة عجيبة عليها. تفعل ما لا تريد إن أيقنت بصوابه. ترحل وهي تود البقاء، وتضحك وهي في أوج الرغبة في البكاء.

انتهى العرض لكنها بقيت جالسة حيث هي لم تتحرك. تراقب رحيل الناس بفوضى تحاكي اضطراب خواطرها.

قفزت في مكانها ملسوعة بسؤاله:

- أرجو أن تكوني قد استمتعت بالمشاهدة.

كان يحدثها كمن استضاف شخصاً عزيزاً في منزله ويحرص على حسن ضيافته. لهجته المرحبة حملت من الود ما لم يكن يتوقع أن يصدر منه.

شلت تفكيرها نظراته التي بدأت تجوس بين تقاسيم

ملامحها. صوته المتأني يحملها بعيداً حيث لم تعد ترى ولا تسمع أحداً سواه.

أجابته بتلعثم:

-كثيراً.

لم تكن تعني إعجابها بالفيلم، فهي لم تحفل به. كان ردها عن تلك الحالة التي خلقها قربه منها بها.

اكتفى بجملته الوحيدة، ثم قام وتوارى في غمار الزحام.

جمله كلها يختارها بعناية.. يعلم توقيت إلقاء كل واحدة كصنارة بها قطعة طعم، ثم يترك الضحية تتخبط وتتأوّه من الألم حتى تهمد.. أو هي كأصابع الديناميت، يزرعها في صخور قلب الطريدة، وعندما تنفجر تحدث زلزالاً يخلخل كل مناحي الكيان. غير أنه في هذه المرة لم يهرب في الوقت المناسب، بل تلكأ حتى وقع الانفجار، وتساقطت عليه شظايا الصخرة، فنال حظه من الجراح.. لقد جعله قربه منها يدرك دلالات ومعاني كثيرة، كان يكتفي بشرحها لغيره. هو اليوم ولأول مرة يعلن أمام نفسه: أنا أحب. يحب هذه الأنثى التي لم تفعل شيئاً، مع ذلك فهو مستعد للتضحية بكل شيء مقابل نظرة أخرى وحديث آخر.

لم يكن يدري وهو يرمي طعمه أنها ستبتلعه بهدوء دون أن تجري وراء صنارته المتخفية. اكتفت هي بذلك الحديث، فلم تسعَ لآخرَ رغم إلحاح روحها طلباً للمزيد. كانت تكتفي بالابتسام كلَّ مرة تراه. يبادلها الابتسام من بعيد. يتعاملان كغريبين ينتظران شخصاً يعرفهما على بعضهما. هو ينتظر منها أن تقترب، وهي تتمنّى أن يجود عليها القدر بمعجزة.. قرر التمادي قليلاً عله يظفر باعترافها هذه المرة.. سيحاصرها كغزال وسط صحراء قائظة حتى تخور قواها ويظمأ قلبها إلى قطرة ندى، فيستجدي الارتواء. يكفي أن تحب امرأة خالية القلب، وتعرف كيف تعبر عن حبك، حتى تأسر كيانها.

اقترب منها حيث كانت مع نور في أحد المعارض للتعريف بالثقافة العربية. استغل زيها الصحراوي الذي ترتديه « الملحفة»وسلم عليهامبدياً إعجابه بالكلمة التي ألقتها:

-لم تكن الصحراء لتجد خيراً منك للتعبير عنها.

ردت عليه بخجل وخفر:

- عادة لا يجد أي بلد خيراً من مغترب للتعريف به.

همست لنفسها في سرها: الحب حين يمتزج بالشوق

يحقق المعجزات. ألقى نظرة سريعة على ساعته، وكأنه يستعد لإنهاء حديثهما القصير:

- وددت أن يطول حديثنا أكثر لكنني مرتبط بموعد. هذه بطاقتي اتصلي بي متى شئت ومتى احتجت إلى ذلك.

رحل بعد أن اطمئن إلى أنه قد حاصر الغزال على الرمال الحارقة المسيجة. هو يعلم أن فضول المرأة قد يجعلها تتنازل قليلا علها تستطيع الشفاء من استفهامات تحز نياط قلبها.

- هو مرتبط بموعدإذن.

شرعت تحدث نفسها كعاشقة تلتهم نار الغيرة هشيم قلبها. أحست أنها رغم عدم امتلاكها لذلك الحق إلا أنه يملكها. هي لم تختر أن تحب. قلبها هو من رفع الراية البيضاء بعدما تأكد من أنه قد خسر حرباً لم تكن فيه موازين القوى متكافئة، لذلك أعلن استسلامه حين سمعت أولى كلماته.

أمسكت البطاقة بلهفة مشتاق، كلهفة أرض قاحلة إلى أولى قطرات المطر. قرأت اسمه ببطء.. أحمد الشيخ.

أحست نشوة انتصار لم تحققه ولم تسع إليه. رددت في نفسها بخجل: « يحبني».

حياء المرأة قد يمنعها من اعترافها بحبها لرجل. كرامتها تمنعها من الاعتراف بسطوة الحب عليها. فتدَّعي سلطتها على الحبيب وتنسب إليه تلك المحبة، تجنباً لسلسلة اعترافات لا تجرؤ عليها.

أرقامه الثلاثة أججت مفاوضات مضنية بين عقلها وقلبها. أتطلبه؟ بأي حجة؟ بماذا ستخبره؟ ولماذا لم يسألها هو عن شيء يخصها؟ من هو حتى يحدثها ببضع كلمات ويرحل؟

حسم عقلها الأمر كما اعتاد.. نهَرَها ونهاها عن تأمل اسمه. عن التفكير في الاتصال به.. بل حتى إنه أمرها بتمزيق بطاقته. نظرت إليها بحنان فقررت التمرد على وصايا عقلها الحازم. هي لن تتصل لكنها لن تمزق البطاقة. ستحتفظ بها. وما ذنب البطاقة حتى أمزقها؟ تعيد قراءة اسمه مبتسمة: «أحمد الشيخ».

ودعت جيهان معتذرة عن زيارتها القصيرة لانشغالها بالترتيب لعودتها.كانت الحيرة سيدة الموقف بين الفتاتين. جيهان غارقة في شجون وطن، ومنايا غارقة في الحيرة بين قلب لا يرغب العودة إلى أرض الوطن، وعقل يحثها على الرحيل.

فتحت زيارة الصديقة جراحاً كانت قد اعتقدت أنها اندملت، لكن يبدو أنها ستعيش مع مرض الذكرى مدى الحياة. في كل مرة تغزوها الذكريات تدفنها بمكان ما في أعماقها، لكن ما أن تمضي فترة حتى تعود لتطفو فتعكر صفاء ذهنها. اكتفت بوداع جيهان، إذ لم تعد لها رغبة في مزيد من الأحاديث الحزينة والوعود ببقاء الاتصال رغم المسافات. لن تودع شخصاً آخر.

انطلقت تجوب الشوارع الضيقة. بخطى متثاقلة ربما ترمي همومها هنا وهناك، أو تضيع الذكريات حيث لا تستطيع العثور عليها من جديد. أحست أن الأماكن كلها تتوسل إليها وترجوها البقاء. كأنها لا تقوى على فراقها هي الأخرى.

تذكرت قطتها التي رمتها منذ أيام على قارعة الطريق، سوسي القطة الجميلة دفعت هي الأخرى ضريبة الفراق غالياً. استغنت عنها رفقة أشياء أخرى ربطتها به. كانت سوسي محظوظة لأنها لم تحرق مع رسائله وبقية هداياه. لم تترك أثراً يذكرها به. لم يبقَ منه سوى رقم أبت جوارحها مسحه من الهاتف وصورة في أعماقها تأبى الرحيل. لم يبق منها سوى

بقايا حب تعيش علِى رماده، وذكرى لم تستطع محاربتها ولن تفعل. مات حبهما إثر حادث أليم. كلاهما اغتال هذا الحب عن سبق إصرار وترصد. ذنبها الكبير ذاك الغرور الذي يستقر في أعماقها وكبرياء رفضت التخلي عنها.. ذنبها محبة ضاعت على عتبة كرامة مزعومة، فلم تترجم رغبة الاستمرار إلى تضحية. لقد أغرقت السفينة في دوامة الأنواء في بداية الإبحار. هي اليوم تفعل به كما فعلت بخالد قبله. تتركه ليحتار وحده ويبكي وحده، ويتجاوز محبته لها لوحده. تحرمه لذة النظر إلى عذاباتها في غيابه. كلاهما يجهل ما يعاني الآخر في الغياب.. المرأة الاستثنائية هي أنثى متعبة تفاجئك دوماً بما لا تتوقعه، لا ترضى إلا بالوصول لحدود الكمال. لا مجال لديها لغلطة أو هفوة، ولا مجال للغفران بعد خطيئة.

مرت أربعة أشهر منذ آخر لقاء جمعهما. لم يعد باستطاعته مقاومة تلك الرغبة التي تلح عليه في رؤيتها أو الحديث إليها؛ كان قد وعد نفسه بألّا يسمح لها بالرحيل، وها هو اليوم عاجز عن تحقيق وعد يحتاج أكثر من غيره إلى الوفاء به.

أكثر ما يؤلم الرجل دموع لا يجرؤ على تركها تنساب، ونحيب يقبع في زوايا روحه في صمت، فيداريه بابتسامة باهتة.

خيل إليه وهو يقرأ ما ورد عن «بلزاك» أنه يعرفهما ويقصدهما بكلماته، فهو وحده من وصف علاقته بها. «الحب امرأة ورجل وحرمان». هكذا حبهما .. هو وهي وكثير من الحرمان. في كل مرة يواسيه صوت عميق من دواخله: لا تخف ستنساها.

كيف ينساها وليست لديه رغبة في النسيان؟ هو لا يريد النسيان، بل يريد الصفح، يطمع في تسامحها الكامن في رقة إحساسها. يريدها أن تغفر له وتمضي معه مغمضة العينين، كالقطة سوسي التي أهداها إياها ذات عيد ميلاد، ورمتها الآن على رصيف ما. لم يكن يعلم وهو يمضي إليها بثقة، أنها ستحطم كل شيء فيه. ستجعل منه رجلاً مشوه المشاعر وغريب الأحاسيس.

الفراق بعد حب عظيم يبعثرنا.. يذبحنا الشوق بسكينه ويريق دماءنا في معابد الحب قرابين مقدسة، فنظل نواسي

أنفسنا بأوهام النسيان. نتحايل على أنفسنا بتلك الأوهام، عسى ثورات الحنين تخبو في دواخلنا. أحوالنا كأحوال أولئك الحكام الظلَمة الذين لا يهمهم ما بعد ثورات الشعوب، بقدر ما يهمهم إخراس تلك الأصوات المتحدية الصارخة، التي تندد بظلمهم واستبدادهم.

بالأمس كان يخشى أن يضعف أمام هذه المرأة، فرفض الاعتراف لها بحبه، إلى أن انتزعته منه عنوة، وهو اليوم مستعد للوقوف على بابها باكيًا راجياً لكنه يعلم أنها لن تغفر.

لقد أحس الآن أنها أخذت قطعة من روحه وهي ترحل، جعلت أحاسيسه مكشوفة ومشاعره مرئية، وهو الذي ألقى بكثير من النساء في غياهب جب العذابات المزمنة بحبال غموضه.

الرجل المحب هو أكثر الرجال جهلاً بنفسه. يخلق الحب بداخله إنساناً آخر. ينبت فيه شعوراً جميلاً وإحساساً عذباً. لكن ذلك الإحساس في عرف الرجال تهمة، والبكاء ضعف، والرضوخ للمرأة جريمة لا تغتفر.

رحل ذلك اليوم مغتبطاً بعد أن أعطاها بطاقة كان يعلم أنها

ستغير مسار علاقتهما الوليدة. سيحرص على أن يستدرجها لتنمي هي هذه العلاقة. منذ أعطاها بطاقته لم يعد يختلق تلك المصادفات للقائها. اكتفى بالانتظار حتى تبتلع الطعم. كان يتعمد أن يغذي شوقها إليه بغيابه، فترك فراغاً يجبرها على المبادرة بالاتصال.

كقائد حرب محنك .. فطن إلى أن هذه المرأة لا تشبه أحداً. كل شيء فيها يدل على ذلك، وبخاصّة احتشامها الأنيق وهي مغتربة ببلد أجنبي. إنها امرأة تحمل من التناقضات ما يعجز عن تفسير. هل كان يهم بوضع خطط جديدة؟ أو ربما قرر التنازل قليلاً في سبيل الوصول إلى هذه الغريبة التي لا يعرف عنها سوى معلومات كلف غيره بجمعها، منايا الإبراهيمي، باحثة في إحدى الجامعات تبلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة صحراوية من مدينة العيون.

عندما رآها أول مرة اعتقد كما تمنى أنها فتاة عربية من المشرق أو الخليج العربي. صدمته مغربيتها. دائماً كان يتجنب التعرف على أنثى تربطه بها حدود، لأن وضعه لا يسمح له بذلك. صحراوية مثله؟ الفرق أنها صحراوية وهو صحراوي

من البوليساريو. هما من البلد ذاته، وما يفرق بينهما هو البلد نفسه. لكل منهما نظرة مختلفة عن نظرة الآخر. لم تكف إشارة كتلك ليفهما أنهما لم يخلقا لبعض. لم يجيدا معاً قراءة إشارات القدر التي تخبرهما أنهما يسيران في اتجاهين معاكسين.

فاجأه اتصالها فأجاب بلهفة:

- كنت قد فقدت الأمل في اتصالك.

أجابته بمكر:

- وهل كنت تنتظره.

- كنت أنتظر أن تحتاجيني

- ربما أنت من يحتاجني.

لم يسألها سؤالاً كانت قد تدربت أياماً على الإجابة عنه. لم يسألها عن سبب اتصالها.. هو يعلم أنها مثله ملت المكابرة. تحدثا لساعات. تجنبا الخوض في موضوع انتمائهما. هو لا غاية له تذكر في تعكير صفو اللقاء، وهي لن تسمح لبلدها أن يحرمها من شخص ثالث.. لن تكترث هذه المرة.. ستدع الزمن يتولى مسار الأمور. لم تكن تعلم أن غدر الزمان كامن في صفائه. وأن الحياة لا تعترف بوجود الصدف. هل نحن

البشر من اخترع كلمة صدفة؟ هل وجدت في قاموس لغتنا صدفةً دون وجه حق؟ هل جعلت أقدارنا مكاناً للصدف في حياتنا؟. هل خلقنا هذه الكلمة لنراوغ بها أنفسنا وغيرنا كلما فاجأنا القدر بما لا نتوقعه؟ هل القدر عالم مجرد مشكل من الصدف؟ أم أنه منظم وكل شيء بقضاء مكتوب؟ هي تعتقد أنه رغم إدراكنا أن وراء المفاجآت أسراراً عظيمة، وأحداثاً قد تقلب حياتنا رأساً على عقب، فنحن لا نعيش وفق صدف محتملة، بل نتجه بخطى ثابتة نحو قدر مكتوب.

لم يسألها عن شيء، فحذت حذوه. كانا يكتفيان بالحديث عن العموميات. لم يكن يسألها لتجيبه، كان يغريها بكلماته، يفتح شهيتها للحديث عن نفسها، ليعرف عنها كل شيء دون أن يسألها عما يشفي غليل فضوله. أما هي فقد حرصت على سؤاله عن بعض تفاصيل حياته الشخصية والعملية.

هو إذن شاب في الثلاثين، هجر مهنة الطب ليتجه إلى عالم الأعمال. لم يكن في حديثه عن الطب حنين يذكر، رغم أنه استغرق في دراسته سنوات كثيرة. هجر الطب لأنه اكتشف أخيراً أنه لا تربطه به عاطفة. هو إذن رجل تحكمه عواطفه.

أخافتها حقيقته هذه.. خافت أن يهجرها وهما لم يجتمعا بعد، كما ترك الطب الذي درسه سنوات. أرعبتها فكرة تخليه عنها دون سبب.. حدست أن لا مكان للوفاء في قاموسه.

هاجر من الصحراء المغربية إلى تيندوف ملتحقاً بجبهة البوليساريو، ثم إلى الجزائر العاصمة، وبعدها إلى فرنسا حيث يقيم الآن. عرفت من اسم الشركة، التي يعد من أكبر المساهمين فيها، أن له من الثراء حظاً وافراً.

لم تُعْنَ بثروته. ما يعنيها كيف اكتسب تلك الثروة في وقت وجيز .. هو نفسه أخبرها أنها مجرد ضربة حظ.

تربطها علاقة وطيدة بالحظوظ.. تعلم أنّ كلمة «الحظ» شماعة يعلق عليها الناس كل ما لا يريدون البوح به.

سألته حين أخبرها بحبه لمدينة العيون:

- ألا تنوي العودة إلى أرض الوطن؟

أجابها بابتسامة مرتعشة:

- أي الأوطان تقصدين؟

- وهل ينتمي الإنسان إلى عدة أوطان؟

- نعم.. هي تلك الحالات النادرة التي يعيش الإنسان فيها

ببلدين وكأنه يعيش بقلبين، بلاد رحل منها وأخرى التجأ إليها هارباً، وبذلك يضيع انتماؤه. هو غريب عن وطنه، ومواطن في بلد الآخرين.

-أنا أقصد المغرب.

- خلتك تقصدين الصحراء المستعمرة.

- وإن اختلف الاسم، فنحن نقصد البلد ذاته.

- أبداً، أنا أتحدث عن الوطن وأنت تتحدثين عن المستعمر. فهل يستويان؟

المستعمر.. رددتها بكآبة حين أقفلت الخط. أيكون بلدها الحبيب هو المستعمر ذاته الذي يقصده. هو إذن من الانفصاليين الذين يطالبون بتقسيم الوطن. يسعون إلى ذلك جاهدين. آلمتها حقيقته المتجلية. جعلتها تفكر لوهلة بعلاقتهما الوليدة. فكرت لثوانٍ في إجهاضها، فهي تبشر بولادة حب عليل لن ينمو يوماً كما يجب.

عاشت عمرها كله في العيون. مدينة صغيرة مظلمة لكنها تشع نوراً.. مهملة ومع ذلك تنداح جمالاً.. هادئة وكل ذرة منها تصرخ.

يختلف ساكنو العيون عن بقية المدن المغربية في لهجتهم وعاداتهم تقاليدهم. ذلك المجتمع الصحراوي القبلي لا يشبه المغَرب في شيء.. لكن ذاك الاختلاف الكبير لم يكن ليدعم موقف مجموعة الانفصاليين في شيء، فالمغرب من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه لا تتشابه مناطقه أبداً. هو بلد الحضارات المتنوعة واللهجات المختلفة.

طالما سمعت عن أحداث دموية لم تشهدها، مع أنها لم تغادر الصحراء إلا في سنوات مراهقتها المتقدمة حين غادرتها للدراسة الجامعية في أكادير. تتفشى أخبار الموت في الشوارع والأحياء، لكنه موت بدون رائحة وبلا لون، ولا وجود له إلّا في إعلام الانفصاليين.

كانت تسأل والدتها عن صدق ما يشاهدون في المحطات الإخبارية، وكيف للإعلام أن يكون أعلم من سكّان المنطقة أنفسهم؟ ترى وجوهاً تبكي الظلم تندد بالقهر وتطالب بالاستقلال. لم تصادف يوماً أحد تلك الوجوه في مدينتها الصغيرة.. هي فقط ترى وتسمع جلبتهم عبر القنوات الإخبارية التي تقتات على كل شيء.

دائماً ما عزت تطويق العيون بشاحنات العسكر والشرطة إلى أحداث الشغب التي يحدثها الشباب العاطل من آن لآخر. لكنها لم تكن لترى فيها تهديداً يذكر. وليست الصحراء وحدها من تعاني البطالة والفقر.. البلاد كلها كذلك.

العيون أصغر من أن تشمل دولتين متناحرتين، وأضيق من أن تراق فيها كل هذه الدماء دون أن يعلم بها أحد. كانت مقتنعة أن هناك من يروج لشائعات كاذبة.. من يغذي الفتنة في البلاد. من يريد الثأر لأجل الثأر.

يستغل الظلمة دائماً الفئات الجاهلة لأنها بلا انتماء، وهي عرضة للانجراف مع أي تيار مهما بلغت سرعته.. يروجون من خلالها لأفكارهم، ثم يقفون للتفرج عليها وهي تستبسل في الدفاع عن قضية ليست لها ولن تخدم مصالحها يوماً كما تعتقد.

أرعبها التفكير من أنه من تلك الفئة الظالمة.. تمنته جاهلاً لا يعلم ما يفعل على أن يكون ظالماً.

لم يكن تاريخ البوليساريو يهم منايا، شأنها في ذلك شأن كل المغاربة، فهم لا يرون فيها دولة قائمة بذاتها ليكون لها

تاريخ. هم مجموعة قليلة آثرت الانفصال عن بلدها الأم، وهي تساوم اليوم للعودة إلى أرض الوطن، وترفض أي حل ينهي مصالحها وينهي اغترابها المربح على أراض جزائرية.

ذكاؤه مرة أخرى جعله يتنازل... لم يستطع أن يودعها قبل أن يستدرجها إليه مرة أخرى.. هذه المرة لن يخترع مصادفات تجمعهما، لأنه يدرك أنها لن تتجرأ على الاتصال به من جديد. لذلك دعاها إلى حفل خيري تقيمه السفارة الجزائرية.. طلب منها أن ترافقه لحضور الحفل. فوافقت بعد تفكير.

٥

وجدت نفسها تدلف إلى ذلك المكان دون قصد.. المكان ذاته الذي جمعهما أوقاتاً كثيرة. رمقت زواياه بخجل.. أحست بالعتاب تنضح به أرجاؤه.. خيل إليها أن الناس ينظرون إليها باستغراب، كأنهم يستنكرون وجودها بدونه.

لجأت إلى زاوية معتمة وجلست في هدوء. سألت نفسها: لماذا أتت وعمَّ تبحث؟. هي هنا. لأنهما كانا هنا ذات يوم. خارت قواها وهي تسمع ضحكاتهما ترن في أعماقها، وصوته يتردد في مكان ما من ذاكرتها.. حاولت عبثاً أن تطرده، فتحولت كل الأصوات إلى جلبة ثاقبة. أجالت بصرها في كل زوايا المكان علها تلمح طيفه مقبلاً، ربما يأتي به الشوق دون قصد منه مثلها إلى هنا.

فاجأها اتصال ليلى. لم تستطع تجاهل إلحاح هاتفها النقال، فقررت الرد. آخر شخص كانت تتوقع سماع صوته

هو أختها ليلى. هي لم تتعرف إليها عن كثب كبقية إخوتها إلا حين انتقلت للعيش معهم بعد وفاة والدتها ..كانت لقاءاتها بعائلتها التي تقطن معهم في المدينة الصغيرة نفسها تقتصر على الأعياد، لسبب ما لا تحب والدتها اختلاطها بإخوتها غير الأشقاء، فهي ابنتها الوحيدة، لذا حرصت على تربيتها كما تريد. أرادت لها حياة بسيطة بعيدة عن الثراء، عكس الحياة المتسمة بالرخاء والسطحية لدرجة التفاهة، التي وفرها والدها لإخوتها الآخرين في مجتمع باذخ مترف.

كانت تحس مع والدتها معنى الوحدة في مجتمعهما الكبير. هي لا تذكر أنها لبت دعوة واحدة إلى المناسبات الاجتماعية أو الأعراس التي يقيمها أعمامها. أما أخوالها في موريتانيا، فلم تكن تزورهم أو يربطها بهم سوى تلك الاتصالات الهاتفية بين الفينة والأخرى.

انتقلت إلى منزل والدها، فأحست بالغربة حيث يجب أن تنعم بالمحبة والألفة. لم تكن تراه كثيراً، فهو من رجالات العيون وسادة القرار فيها. دائم السفر والانشغال بحكم عمله. كانت تعيش وحيدة بين الخدم ومع أختها المطلقة ليلى، وقد

وجدت نفسها مع مرور الزمن تتأقلم مع الحياة الجديدة الغريبة التي أرغمتها الظروف على الانصهار فيها. لم تعد ترعبها سهرات أخواتها كل ليلة خميس حين يأتين لتمضية هذه الليلة المباركة في بيت والدهن، ولم تعد تكترث لتفاهة أفكار أختها التي كان همها الوحيد حضور أكبر عدد ممكن من حفلات الزفاف، لعل الحظ يبتسم لها في إحداها فتصطاد عريساً آخر. كانت أختها تواظب على زيارة أسواق العيون المتواضعة والباهظة الأثمان.. لم تكن لتتجول كثيراً؛ فمحلات نخبة المجتمع معروفة والبائعات يعرفن تمام المعرفة سبل جذب زبوناتهم الثريات.. تبتدأ حملات الاتصال بمجرد دخول سلع جديدة خصوصاً من الإمارات وموريتانيا.. نقطة قوة البائعات تتمثل في التأكد من كون الزبونات الصحراويات الثريات، لا يستطعن الاستغناء عن ثوب الملحفة، اللباس الرسمي في الأقاليم الصحراوية، لذا وحتى إن اقتنين مستلزماتهن من المحلات الراقية في المدن الكبرى كالرباط والبيضاء ومراكش وأكادير، التي تعرض الماركات العالمية من أحذية إيف سان لوران، وحقائب كارتييه، وإكسسوارات كريستيان ديور وعطور

شانيل، وساعات روليكس، فتبقى الملحفة الثوب الأساسي في الصحراء المغربية، وحل مشكلتها سهل في الأقاليم الصحراوية، وخصوصاً مدينتي العيون والداخلة، ذلك لما لساكنيها من ذوق رفيع واحترافية بائعاتها في استقطاب الزبائن الذين يحاولون ما أمكنهم التميز في بحر ألوان الملحفة وأقمشتها المتنوعة ذات الجودة العالية والغالية.

وعدت ذات يوم أباها قبل سفره في رحلة عمل بأن تذهب مع أختها لزفاف ابنة عمتها علها تختلط أخيراً بأقاربها؛ لم ترحب ليلى بالفكرة، فهي تعلم أن حضور وجه جديد كفيل بإثارة زوبعة من الاهتمام، وبخاصّة إن كان هذا الوجه لفتاة هادئة ذات سمعة طيبة وحاصلة على الليسانس في الاقتصاد، إلا أنها وافقت مجبرة.. حاولت ليلى بمكر أنثوي اختيار ملابس منايا، مدعية الخبرة في هذا المجال إلا أنها بلباقتها وفطنتها المعهودتين رفضت بأدب، وأخبرتها أنها تفضل اختبار ذوقها.

كان الأسبوع ما قبل حفل الزفاف حافلاً بالنسبة إلى ليلى، قضته بين الأسواق وزيارة أهل العروس، مدعية المساعدة في

الترتيب للحفل، والوقت القليل الذي تقضيه في المنزل تلازم فيه غرفتها ملطخة وجهها بمعجونات جميع أنواع الخضر والفواكه، أو ما تسميه أقنعة (ماسكات) طبيعية لتفتيح لون بشرتها التائه بين البياض والسمرة. كان غياب والدهما سبباً كافياً ليتغيب إخوتها عن سهرة الخميس التي يقضونها بعد تناول العشاء رفقة الوالد في مشاهدة مباريات كرة القدم، أو في نقاشات مختلف المجالات. في حين تجتمع أخواتها في الصالون العلوي وينقسمن مجموعات أو فرادى، هذه تشاهد التلفزيون، وتلك تدخن وأخرى مندمجة في أحاديثها الأسبوعية مع أصدقائها. لم يكن يجمعهن سوى أكواب الشاي (أتاي) الذي تعده الخادم، فيحتسين الواحد منها تلو الآخر متجاوزات الحد الأقصى المتمثل في ثلاثة أكواب كما جرت العادة، وكأنهن يحاولن حرق السعرات الحرارية للسأم الذي يلازمهن طوال الأسبوع مع أزواجهن.

كانت تجلس أحيانا مع أخواتها فتستمع لأحاديثهن بقرف يضحكهن ويجعلهن يتمادين في استفزازها.. لقد كن يتلذذن بإحراجها، لذا قررت أن تجتنب مجالستهن وتؤثر مخالطة

أطفالهن أو ملازمة الخادمات أو الانفراد بنفسها في غرفتها والحديث مع أصدقائها الذين تعرفت إليهم من طريق شبكة الأنترنت أو بالأحرى صديقها الوحيد.

حسن هو وحده الذي يختلف عن الجميع، بثقافته واتزانه واحترامه لها.. هو الوحيد الذي كان يعاملها كما هي لا كما يتوقع أن تكون عليه. آمنت مع حسن بإمكانية وجود علاقة صداقة بين الجنسين، فهي رغم ارتياحها الكبير له، وإخباره بكل كبيرة وصغيرة في حياتها، إلا أن شعورها نحوه لم يتجاوز الحب الأخوي قطّ، وكذلك كانت هي بالنسبة إليه صديقته وأخته الصغيرة. ما كان لينغص صفو صداقتهما شيء سوى تلك النقاشات التي يخوضانها من آن لآخر .كان حسن على دراية واسعة، تجعلها دوماً تردد بعد اقتناعها بآرائه: إنما يُفحم الذكي. مع أنها على ثقة أن جهلها بأمور كثيرة هو الدافع الرئيسي لاقتناعها السريع بكلامه. أقنعها بما لا نهاية له من أقوال الفلاسفة والشعراء بأن شعورها نحو خالد لم يكن حباً، بل هي تجربة حب وشتان بين الأمرين. ودليل ذلك أنه ما أن غاب عنها فترة حتى بدأت ذكراه تتلاشى، وأصبح حبه

صورة باهتة تحتفظ بها في درج ذكرياتها.. أخبرها أن الحب الذي يؤثر فينا فعلاً نخشى البوح به حتى إلى أقرب المقربين، ونبخل بمشاركته مع غيرنا. كانت تجد في كلماته مواساة لها، لذا أدمنت الحديث معه والأخذ بنصائحه. سألته ذات مرة وهما يستمعان إلى أغنية (أتحبني) لكاظم الساهر، ويرددان معه كلماتها بطرب:

أتحبني رغم الذي كان
إني أحبك رغم ما كان
ماضيك لا أنوي إثارته
حسبي أنك هاهنا الآن.

رغم إعجابها الكبير بغنائهما الجميل وتأثرها بعذب كلمات الأغنية، إلا أنها داعبتها فجأة رغبة مجنونة في استفزازه كما يفعل هو بها دوماً، فسألته مقاطعة اندماجه التام:

- حسن؟

رد بضيق:

- يا نعم.

قالت بخبث:

- أتراه الرجل الشرقي يغفر ماضي حبيبته فعلاً، أم هي مجرد أكاذيب نتغنى بها؟

- وهل ترضى المرأة الشرقية الطاهرة أن يغفر الرجل لحبيبته ماضيها.

- لا ترد على سؤالي بآخر.

- بل سؤالي لك يحمل إجابة واضحة.

- كيف؟

- عزيزتي.. الرجل الشرقي تحكمه عادات وتقاليد، بل عاطفة أخذها عن امرأة ربته ونساء أحطن به في سنين نشأته الأولى، أنتن معشر النساء من تحاربن بعضكن بنا نحن الرجال. معظم قراراتنا رهن بموافقتكن. فإن أنا غفرت لحبيبتي ماضيها، أتغفر لها أمي وأختي وخالتي وعمتي ذلك؟ طبعاً لا.. سيسعين دائماً إلى تذكيري بذلك، هذا على فرضية أنهن قبلن اقتراني بها.

مقاطعة:

- أهنئك على خبرتك في تزوير الحقائق.

- بدل أن تهنئيني، ماهي الحقيقة الخالصة؟

أضافت بتوتر:

- لا داعي لذلك، فأنا واثقة أنك مدرك لها، ورغم ذلك لن تقبلها.

دائماً كانت هي من تبتدئ نقاشهما لتنهيه بعد ذلك على مضض، ورغم اختلاف آرائهما، لم يقع بينهما أي خلاف يذكر، إلى أن حدث ما لم تكن تتوقعه. كانت في محادثاتها تلاحظ بعض التصريحات الغريبة منه، إلا أنها عزت ذلك لاختلاف مجتمعيهما، فلا شك أن هناك اختلافاً كبيراً بين المجتمع السعودي المتزمت والمجتمع المغربي المنفتح كثيراً. كان يخبرها بحزم أنه لا تجوز الصلاة البتراء على رسوله الله صلى الله عليه وسلم، وأنه يفضل مناداة علي رضي الله عنه، بالإمام علي رضوان الله عليه. وحين تحاول بمعرفتها الدينية القليلة التحدث عن صحابة رسول الله يغير دفة الحديث بانزعاج واضح.. تجرأت أخيراً وسألته:

- أتسمح لي بسؤالك من أي طائفة أنت.

- أنا مسلم شيعي.

ردت متسائلة باندهاش وهي تنطق حروف الكلمة مشبعة المد:

ـ شيعي؟

أجابها بثقة مشبعة بنبرة أنفة عالية:

– نعم.. أنا مسلم شيعي.

– إذاً أنت من الذين يجرمون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته عائشة رضي الله عنها؟

– أهذا كل ما تعرفينه عن مذهبنا؟

لم تجد كعادتها رداً على كلامه. فهي لا تعلم عن الشيعة أكثر مما ذكرت. حاولت جاهدة الدفاع عن نفسها وسؤاله: أيحق لأي كان التشكيك فيمن بشرهم الله سبحانه وتعالى بالجنة؟ طلب منها حديثاً صحيحاً يؤكد صحة قولها. لم تسعفها ذاكرتها في ذلك، فاكتفت بالرد بعصبية أن هذا أمر معروف.

حاول التخفيف من حدة التوتر بينهما فأخبرها مازحاً بأنه مستعد في خوض نقاش عميق معها عن الأمر لكن بشرط.

– وما شرطك؟

– أن نتكلم في الأمر حتى يقنع أحدنا الآخر.

ردت بخوف:

-كيف؟

- يعني إما أن تجعلي مني سنياً وإمّا أن أحولك شيعية.

لم تكن لتقبل بمغامرة كهذه، فهي وإن وثقت في عقيدتها وإيمانها، إلا أنها تفتقر عكسه إلى الثقافة الواسعة، وسبل الإقناع الكافية. كانت مبادئها أسساً تربت عليها أكثر مما هي قناعات آمنت بها عن خبرة. أما هو فكان دائماً يستدل بأحاديث كثيرة لم تكن هي لتستطيع التأكد من صحتها. أخبرها أشياء كثيرة لم يكن قلبها المؤمن ليتقبلها فاكتفى، لكي لا يخسر صداقتها، بإعطائها مواقع أخبرها أنها ستفيدها كثيراً في توسيع دائرة معرفتها الضيقة.

أنهت حديثها معه مسرعة على غير العادة، وأقفلت جهاز الحاسوب بعد أن وعدت نفسها أن لا تحدثه مرة أخرى، إلى أن تملك زاداً معرفياً يمكنها من درء هجماته.

التحقت بأختها لتذهبا معاً. تفحصت ليلى منظرها بعينيها الثاقبتين وارتاحت قليلاً لبساطة لباس أختها. كانت ترتدي فستاناً موحد اللون، متأبطة حقيبتها الوردية ومنتعلة حذاءها المتوسط الكعب لتكمل رقة مظهرها في ملحفة الشكة

البنفسجية التي تتخللها خطوط وردية باهته اللون. تناسق مكياجها الخفيف جداً مع شعرها المنسدل بإهمال متعمد تحت ملحفتها.. لم يكن يظهر من شعرها سوى خصلات الغرة المنسدلة بعناية على طرفي عينيها. جمعت في مظهرها بين رقة الأنوثة وبراءة الطفولة، عكس ليلى التي بدا أنها ضائعة في تحديد عقدها الزمني، ذلك أنها ارتدت ملابس غامقة اللون، تدل على عمرها الثلاثيني في حين اختارت مكياجاً صارخاً وكأنها فتاة صغيرة عبثت توّاً في مساحيق التجميل الخاصة بوالدتها.

كبحت منايا ضحكاتها وهي تتأمل أختها التي يبدو أنها لم تشأ أن تختار لوناً دون آخر، فجعلت من لباسها كرنفالاً بالألوان الصارخة. كان مظهر ليلى ينم عن ثراء فاحش فقط لا غير، ساعتها الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة لم تتفق قطّ مع قرطيها الأحمرين وخاتمها الأسود الكبير، ناهيك عن أكسسوارات أخرى لم تكن في حاجة إلى ارتدائها. شعرها الحريري اغتصبت بهاءه بعض الخصلات المصبوغة باللون

الأصفر، أما بشرتها الخمرية فإنها تعاني تحت وطأة كريمات التبييض.

وصلت الأختان إلى قاعة الحفل مبكراً قبل بقية المدعوين لأنهما من أهل العروس. دلفت منايا إلى القاعة بخجل شديد عكس ليلى التي يخيل لمن يراها أنها ذاهبة إلى مكان عملها اليومي لا إلى مناسبة اجتماعية.

قالت ليلى بلهجة شبه آمرة، موجهة الخطاب لأختها:

- اختلطي بالناس.. أما أنا فسأذهب لأسأل عن العروس لأجلس معها إلى أن يحين وقت كتابة العقد.

ردت منايا بعد تردد:

- حسناً

انطلقت ليلى تشق طريقها فتسلم على هذه وتغمز لأخرى إلى أن اختفت. كان الكل منشغلاً بترتيب القاعة استعداداً لوصول أهل العريس. ذهبت منايا إلى حيث العلايات، وهن النسوة البالغات ما فوق الأربعين، وهو السن الذي يخول لهن الجلوس في الصفوف الأخيرة لمراقبة الشابات. كانت مهمتهن الوحيدة مخالطة الناس، أو الجلوس إلى صينية الشاي.

أنهت السلام على الصفوف الطويلة منهكة، فكل واحدة من النسوة كانت تحقق معها لما يقل عن عشر دقائق، فبعد أن تسألها من هي، تعانقها بحرارة مخيفة، وتغرورق عيناها لذكرى والدتها التي قد لا تعرفها في الغالب، لتلومها بعد ذلك على التقصير في صلة الرحم وتختم كلامها بالإشادة بمظهرها الجميل.

سمعت الأصـوات تتعالى، فعرفت أن أهل العريس قد وصلوا. اصطفت مع شابات القبيلة، يحملن أطباق التمر وأواني اللبن استعداداً لاستقبال أهل العريس الذين أحضروا معهم «الصداق»، وهو عبارة عن سلسلة حقائب تحتوي على ملابس وأكسسوارات خاصة بالعروس، بالإضافة إلى أكياس السكر والشاي والإبل وأطباق تحتوي على إبر وأمشاط ومرايا وغيرها.

استغربت غياب الموسيقى عن الحفل، فسألت ثريا أخت العروس عن ذلك، فأكدت لها أنه لا يجب تشغيل أي موسيقى إلى أن يعلمنا الرجال أنه قد تمت كتابة عقد النكاح. إذ بعد ذلك ننقسم إلى مجموعات، مجموعة تغني أغاني المناسبات

المعتادة، ومجموعة مهمتها التصفيق وأخرى مكلفة بالرقص. بينما تتكلف إحدى خبيرات الضرب على الطبل بضبط الإيقاع.

سألتها بخوف:

- ولأي مجموعة سننتمي نحن؟

أجابتها ثريا ضاحكة:

- أي مجموعة تريدين، لا أحد سيجبرك على شيء، ويمكنك الاكتفاء بالتفرج، لكنك لن تلفتي أي انتباه يذكر، وأشارت إلى حيث «لعلايات»..لم يدم استغرابها طويلاً فقد صاحت خادم بصوت جهوري يشبه صوت رجل:

- لقد تم عقد القِران.

اجتمعت النسوة وشكلن دائـرة حول الطبل يغنين ويصفقن ويرقصن، بينما ظلت أم العروس تبكي، لأنها تدرك أنه بهذا العقد ستودع ابنتها الغالية، لذلك همست في أذن أختها طالبة منها الذهاب إلى بيت جدها لتفقُّد العروس، وكذلك تطلب من «الحناية» بأن تشرع في تخضيب قدميها بالحناء.

تبقى العروس وقت كتابة العقد غالباً في بيت أحد أقربائها، كي لا تختلط كثيراً بالناس. وفي يوم الزفاف تجلس

معها «المعلمة»، وهي المرأة المكلفة بالعناية بها وبتجميلها وبتحنيتها، فتبتدئ حنة اليد في وقت مبكر، وتؤجل حنة الأرجل إلى ما بعد العقد ذلك أن الفتاة العزباء في العرف الصحراوي يمنع عليها تحنية أرجلها.

وجدت منايا نفسها تصفق بحرارة، مستجيبة لإيقاعات الطبل، وتحرك رأسها تشجيعاً لبنات عمومتها وأخواتها اللواتي يرقصن داخل الدائرة. توقفت الموسيقى فجأة حين أعلن وقت الغداء، وأن المجموعات الغنائية المحترفة ستصل بعد قليل.

نزولاً عند رغبة عمتها أخذت منايا تتنقل بين الطاولات للترحيب بالنسوة الجالسات المتحلقات حول طاولات الطعام، مرددة كلمتين لا ثالثة لهما: مرحباً وسهلاً، وتتبعهما بابتسامة عريضة. ورغم إحساسها بالتعب، فقد افتتنت بأجواء الحفل كثيراً على عكس ما توقعت.

مر الوقت سريعاً وشارفت الساعة على الثامنة مساء. أخبرت ليلى أختها أنها ستذهب إلى بيت العروس وستبقى هناك حتى تأتي معها في الليل موعد الحفل الرسمي، وتركت

لها حرية الاختيار بين الجلوس مع بنات عمومتها أو الذهاب إلى البيت انتظاراً لوقت الحفل في منتصف الليل. كان تبرم ليلى واضحاً من تحملها مسؤولية أختها كما أمرها والدها. اتصلت بالسائق عدة مرات، إلا أن هاتفه كان مغلقاً، فلم تجد بداً من إزعاج أختها:

- هاتف كمال مغلق، ولم أجد تاكسي.
- حسناً لا داعي للذهاب إلى البيت ابقي مع البنات.
- ولكن لم أحضر معي ثيابي
- هذه مشكلتك وليست مشكلتي.

لم تنزعج من لهجة أختها اللامبالية، فهي قد تعودت على غيرتها الشديدة رغم فارق السن بينهما. ورغم ثقتها أن الرجال الذين ينتظرون نساءهم خارج القاعة لإيصالهن إلى البيوت مستعدون لإيصالها، إلا أنها لا تحبذ ذلك. بعد ساعة من الانتظار بدأت تشعر بالضيق من أنغام الموسيقى التي بدت لها ناشزة أحياناً، مختلطة مع أصوات النساء المرتفعة وهن يتحاورن، بحيث يستحيل تمييز معاني أحاديثهن.

أخيراً جاء الفرج لتناديها عمتها وتخبرها بأن «سيداتي»

سيوصلها إلى البيت، وأمرتها أن تغير ثيابها وتعود ولا تتأخر كعادة البنات. ابتسمت وقبلت يد عمتها مودعة. التحقت بسيارة «سيداتي» التي تقل أخته ووالدته وإحدى عماتهما. جلست في المقعد الخلفي وسط زوجة عمها وابنته بعد أن القت التحية.

قالت لها والدة سيداتي بغضب مصطنع:

- ستأتين معنا إلى البيت، فأنت لم تزورينا منذ مدة طويلة.

ردت بابتسامة خجولة:

- أعدك بزيارتكم قريباً، لكن الآن سأذهب إلى بيتنا وسأعود إلى الحفل ليلاً.

- هذا وعد؟

- إن شاء الله.

أزعجتها نظرات سيداتي من خلال المرآة، وتمنت أن يوصلوها أولاً ثم يكملوا طريقهم. بعد الاستحمام وأخذ قسط قليل من النوم، ارتدت ثيابها التي دلت هذه المرة على ذوق رفيع.. فستان أسود يحيط جسمها النحيل وحقيبة يد حمراء من نوع كارتييه، وحذاء ذو كعب طويل يزيد من طولها المتوسط

باللون الأحمر. أما ملحفة السواري فكانت مزيجاً رائعاً بين اللونين الأحمر والأسود الذي يشكل أرضيتها الأساسية. أكمل طقم الماس، الذي أهداها إياه والدها بمناسبة تخرجها، جمالية منظرها ورقته. أقلها السائق إلى القاعة بعد اعتذاره عن إغلاق هاتفه. سلمت على المجموعة ذاتها التي ظلت هناك منذ الصباح، وجلست مع بنات عمها تصفق لمن يرقصن وتشاركهن الرقص بين الفينة والأخرى لكن بخجل. ورغم أن الوجوه لم تتغير إلا أن الجو العام للحفل كان مختلفا تماماً عن حفلة العَقد؛ فالنساء على أهبة الاستعداد لاستقبال العريس والعروس اللذين سيأتيان في وقت لاحق من الحفل. الوقت الذي يسمح فيه للشباب بالمشاركة في الاحتفال، ذلك أنهم يأتون مع العروسين وأهل العريس. كانت منايا تراقب الفتيات فتضحك سراً على تصرفاتهن، وتستغرب من انصياعهن لكلام كل من لها ولد في سن الزواج. رأت في أختها ليلى شخصاً آخر لا يمت بصلة لأختها التي تعرفها، تداعب الأطفال وتمازح صديقاتها. ما أن تطلب امرأة قلماً لتدوين اسمها على هديتها أو كتابة رقم ما، إلا وحدثت حالة استنفار بين صفوف

الشابات، كل واحدة تريد أن تكون السباقة لتلبية الطلب، علها تحظى بصفة الفتاة اللطيفة المطيعة، عسى أن يسمع أحد الشبان بصفاتها المزعومة فيتقدم لطلب يدها.

مرت الساعات سريعة، حافظت فيها الفتيات على طاقتهن ونشاطهن ومظهرهن. بعدها سمعت أصوات السيارات خارجاً، معلنة وصول العريس وأهله بعد أن أحضروا العروس من بيت جدها. ذهبت أخت العروس مسرعة في اتجاه مغنية الحفل وأخبرتها بوصولهم لتستقبلهم بالأغنية الشهيرة. وقفت المقربات من العروس وأهلها لدى الباب، مصفقات للموكب على أنغام الأغنية الخاصة بأعراس أهل الصحراء.

«ويلو ويلو مشات بيه فلانة بيه مشات بيه الفليح بيه مشات بيه».

رأت العروس تتقدم بخطوات متعثرة يساعدها عريسها ويحيطها بيديه وحولهما أهله وأصدقاؤه، وعلى طرفي طريقهما القصيرة إلى مكانيهما اصطف أهل العروس. جلس العروسان في مكانهما وأمامها مجموعة من الأصدقاء وحولهما أهل العريس، في حين جلس أهل العروس في الصف المقابل لهما، وتفصل بين المجموعتين منصة الغناء والرقص.

لم يلفت انتباه منايا رقص الفتيات المتقن، ولا تصفيقات الحاضرات ووقوفهن لدعم المقربات منهن بالتصفيق، ولا صوت المغنية وهي تترنم بكلمات غريبة لكن بلحن جميل.

كان كل انتباهها مركزاً على العروس ولباسها المتمثل في الملحفتين اللتين تلفانها من رأسها إلى أخمص قدميها، إحداهما باللون الأسود، والأخرى بيضاء ناصعة. حاولت فهم السر وراء لباس العروس الصحراوية، فتذكرت ما قرأته في أحد مواقع الأنترنيت، أن الأفارقة هم من سن لبس العروس للطرحة البيضاء، ظناً منهم أن ذلك كفيل بطرد الأرواح الشريرة.

أيكون التقليد الصحراوي بلباسه هذا يهيئ العروس لحياتها القادمة بما فيها من فرح وحزن؟ أم أنه ينبهها إلى أن الحياة ما هي إلا مجموعة من التناقضات والثنائيات الضدية؟ أم أنها ليست إلا تعاقباً يتكرر لليل والنهار. الليل تمثله الملحفة السوداء، والنهار ترمز إليه الملحفة البيضاء، التي يمكن أن تكون لها أيضاً دلالة الكفن الذي يخلص الإنسان من الحياة التي ليست في الأخير إلا مسلسلاً أسود مشبعاً بالحزن والألم؟

لم يقطع حبل أفكارها سوى الأصوات التي تعالت

فجأة. انتبهت إلى مصدرها فوجدت المغنية وقد تقدمت نحو منصة الرقص، والأوراق النقدية تتطاير في الهواء، ومجموعة من النساء مجتمعات يصفقن بفرح، وابتساماتهن تكاد تشق أوجههن.. بعد لحظات فهمت سر الجمهرة النسائية المفاجئة، إذ تكرم أحد الرجال على المجموعة فقدم وصلة رقص دامت ثواني تركت صدى واستحساناً كبيراً لدى الجميع.

انتهى الحفل حين قرر «مـولاي» أي العريس، أخذ مولاتي «العروس». تفرق الجميع عند ساعات الصباح الأولى على أنغام الأغنية نفسها، برغم أن العريس بدرَّاعته البيضاء، وعمامته السوداء التي اتخذ جزءاً منها لثاماً غطى به أنفه وفمه، كان أبعد ما يكون عن كلمة الفيلح، أي الوسيم.

في طريقهما إلى المنزل أخذت تستمتع بفرح غير مألوف إلى اتصالات أختها لتحصل على تقارير مفصلة عن كل ما فاتها في الحفل مثل حوصة العروس، أي المبلغ المالي الذي قدمه العريس لخادم العروس وعن فلانة التي «شالت رأس النعامة»، وذلك أن خطيبها أعطى مبلغاً وفيراً من النقود لمغنية الحفل لتغني وتمدح خطيبته.

استغربت عدم ملل أختها ولا تعبها، فهي ما أن انتهت من الحفل حتى بدأت تنظيماً آخر وذلك لتوديع العروس أو ما يسمى بحفل الطافلات. كما استغربت طبيعة حفل الزواج الصحراوي الذي يعطي الأولوية للجميع باستثناء العروس، فدورها يقتصر على اختلاس النظر من وراء ملحفتيها دون أن تحظى بفرصة المشاركة، وكأن فرحة الحصول على زوج تكفيها، لتجعل حفل زواجها فرصة تغتنمها فتيات غيرها لاقتناص عرسان محتملين.

٦

لم تسألها ليلى لِمَ تأخرت عن الرد على الهاتف، أو عن سبب صوتها المخنوق بالعبرات. أخبرتها بسعادة راقصة، أن خطوبتها تمت وأن الزواج بعد شهر. ثم أردفت بلهجة من يواري سراً دفيناً:

- وأنا متأكدة أنك ستلحقين بي عما قريب.

أكد لها صوت أختها أنها لم تتغير قطّ.. ذكرتها بعودتها القريبة إلى بلدها. ستذهب دون رجعة.. سترحل حيث لا يمكنه اللحاق بها. هو اليوم لم يعد عدو الوطن فقط بل عدوها هي أيضاً.

نحن لا نستطيع إقناع أنفسنا بنسيان من كنا نحب، إلا حين نشوه صورته في دواخلنا.. نبحث في أقواله وأفعاله عن كل ما يمكن أن يدعم موقف انسحابنا من حياته. مصيبتها في الحب

أنها تحكم القلب في البداية، ليتولى العقل إصدار القرارات في النهاية.

كم تمنت لو يشرق الصباح على ظلام قلبها فينير الروح ويضيء دروب الأماني من جديد. حكايتها شمعة حاولت تبديد الظلام الدامس، هي لا تنيره أبداً، لكنها فقط توضح لها الرؤية لزمن يسير، ثم تذوب وتنتهي لتعود هي مرة أخرى متخبطة في ثنايا الظلام.

هذا المكان شهد لقاءاتهما الكثيرة وخصامهما أيضاً.. على الطاولة نفسها جلسا ذات يوم، حين اقترب أحد أصدقائه. لم تكن علاقتهما تطورت بعد ولم يعترفا بعد بسلطة الحب عليهما. كان لا يزالان يصران على التظاهر بالصداقة، لذا لم يجد ما يفسر به غيرته يومذاك. حاول إخفاء سبب بروده مع الصديق. برر ذلك بكونه لا يحبه، وأن بينهما مشاكل. نظرات المارة إليها تسبب له ضيقاً لا يستطيع إخفاءه. حتى زملاؤها في الدراسة يوترون أعصابه.

كانا يجلسان بهدوء حين أمسك هاتفها فجأة. كأنه ضابط يقوم بحملة تمشيط. مسح كل الأرقام الخاصة بأصدقائها من

الذكور. أصبح كل الرجال اليوم أعداءه. كل من يجرؤ على سماع صوتها هو في نظره عدو يجب التخلص منه. يريدها له وحده، ومع ذلك فهو عاجز عن إخبارها بتلك الحقيقة.

انزعجت مما فعله، فسألته بهدوء صارخ:

- من سمح لك؟

أجابها بهدوء مماثل:

- إحساسي نحوك.

هو دائماً يلقي أمامها الاعتراف الصريح في الزمن الخطأ والمكان الخطأ. يفاجئها كما اعتاد كما لا تحب بما تحب. لم تدر بما ترد، ولم تسعفها سلاطة لسانها، كما تقول لها جوليا، بالتحدث بكلمة.

- يحبني.. زقزقت عصافير روحها منشدة لحن الاعتراف بالحب. افتر ثغرها بتلك الابتسامة الخجول التي تضعفه في كل مرة يهم بالحديث. أكمل حديثه:

- ما رأيك؟

- في ماذا؟

تلعب لعبته.. تستدرجه للاعتراف الكامل كما فعل بها هو

أول مرة. أي النساء أنت؟ وأي أفعوانٍ مخادع هذا الذي بين يديك؟

نصح صديقاً له يوماً بألا يدع امرأة تتجرأ عليه.. على الرجل أن يكون سيد قراراته.. عليه أن يخبرها ببعض ما تشاء، ويجعلها دوماً تشتاق المزيد.

هو اليوم مستعد لإثبات زيف نظريته.. أن يكشف كل الأوراق.. أن يعلن الهزيمة. أجابها دون أن يفكر:

- أتعلمين أنني أحببتك منذ أول نظرة؟

عاد به الزمن لأول يوم رآها في المطار. كان أول لقاء يرتبان له، كان ذلك اليوم حين قبلت دعوه لحضور الحفل الخيري في السفارة الجزائرية. ذاك اللقاء فتح أبواب الحب على مصراعيها. جلست يومها مترددة.. تتجاهل صوت عقلها الذي لا يفوت فرصة ليذكرها أن ما تفعله خطأ، وأنه ليس من الصواب لقاء رجل غريب، وأن ذلك من المحظورات في مجتمعها. كيف تستعد لذلك النوع من الحفلات ولم يسبق لها حضورها؟. ماذا سترتدي؟ كيف سيكون الناس هناك؟ كيف ستندمج معهم؟

إجابة واحدة كانت تدغدغ مشاعرها البريئة.. ستلقاه.

ساعدتها جوليا ونور كثيراً في طرد أشباح الخوف والقلق.. قالت لها جوليا باسمة بدعابتها المعتادة وهي تصفف شعرها:

- إحساسي يخبرني أن باريس ستشهد قصة حب عربية رائعة.. إحساسي لا يخطئ أبداً.

سألتها بفضول ساخر:

- وبماذا يخبرك إحساسك أيضاً يا مدموزيل؟

- يخبرني أنك ستتعبين هذا المسكين كثيراً.

قالت لها برجاء مفاجئ:

- رافقيني أرجوك.

- ألست خائفة من أن أخطف حبيبك؟ أم أنك لا ترين فيَّ تهديداً؟

- أولاً أنا لا أعرفه حتى يكون حبيباً، وثانياً أنت تعرفين أنك بارعة الجمال والذكاء.. لا داعي لكي تستدرجيني كل مرة لأكرر ذلك كل وقت.

مضت بضع ساعات جربت فيها كل ما تحوي خزانتها

من ملابس. غيرت تسريحتها خمس أو ست مرات. ارتدت أكسسوارات بسيطة، ونزعت الساعة مرغمة، فجوليا خبيرة الإتيكيت، أكدت لها أنه من غير اللائق ارتداء ساعة في مناسبة مثل هذه.

نزلت بهدوء أسفل البناية حيث كان بانتظارها.

في اللقاءات نحرص على أناقتنا كثيراً.. نحرص على ترك ذاك الانطباع الجميل في أنفس الآخرين.. نود أن نخلف ذلك الأثر الطيب في مخيالهم.. أن ترتبط صورنا في أذهانهم بكل شيء جميل. هي مظاهر خارجية نعتني بها كثيراً ربما أكثر مما يجب. ليتنا نفعل بمشاعرنا الشيء نفسه، فنهذبها استعداداً للقاء. وليت مشاعرنا لا تفضحنا كثيراً، فتفصح لمن نحب عن شوقنا إليه، وتشبثنا به.

كانت تحتاج تهذيباً من نوع آخر، تمنت لو أنها تقتلع أحزاناً استقرت في أعماق روحها منذ زمن بعيد. أرادت نسيان كل ما من شأنه أن يعكر صفو لقائها به.

تمنت لو تجرب الجنون للحظات، فعقلها الصارم بدأ يتعبها. ملت تلك الحسابات التي تخوضها كثيراً، والتي توصلها إلى نتيجة ترضي الجميع عداها.

هي تحتاج إلى الجنون علها تحس الحرية.

الإنسان الحازم الصارم لن يعرف طعم الحرية يوماً، تحرمه مسؤولياته من ذلك. لا يستطيع الطيران دون أن يأبه للأرض التي سيحط عليها.

رأته ككل «جنتل مان» يقف أمام سيارته في انتظارها.. راقتها رؤيته متردداً.. لم تكن ترى غيره ولا تسمع صوتاً سوى ضربات قلبها الخفاقة. هو الحب.. هكذا أخبرتها جوارحها. لن تتحايل على نفسها أكثر. ستعترف له بحبها، وليفعل عقلها ما يشاء.

حين رأته أحست وكأنها تسمع مقطوعة تعرفها حق المعرفة. ما يلزمها هو بعض الوقت كي تميزها.

ابتسم ابتسامة مرحبة وهي تقترب بشكلها الهادئ وملابسها البسيطة. منظرها يدل على العطاء.. فتاة جميلة دون تكلف. بسيطة وهادئة كما لو أن مشاكل العالم لا تعنيها.

سألته متجنبة نظراته:

- أرجو ألا أكون قد تأخرت.

لم يكن سؤالاً تبحث الإجابة عنه، هي تنتظر الإجابة عن

سؤال آخر حملته في طيّات كلامها. أرادت أن تعلم إن كان يضايقه انتظارها.

أجابها إجابة رجل بارع في قراءة ما بين السطور:

- أنت تستحقين أن ينتظرك المرء ولو كان ذلك على امتداد العمر.

كانت تحدث نفسها سراً وهي تدخل رفقته إلى الحفل الفخم: لو أنهم سخّروا ما أنفقوه في هذا الاحتفال على فعل الخير لكان أجدى وأنفع.

هي لا تعلم أن مثل هذه الحفلات كلها من أموال الشعب الفقير الكادح، وأنها وسيلة لترويج الأفكار والأيديولوجيات فعلى الفقراء أن يصبروا من أجل رفاهية الأغنياء.

انشغل ذهنها بمثل هذه الأفكار. كانت تتأمل المكان في خوف شديد. هي تعلم أنها لا تنتمي إلى هذا العالم. شخصيات كثيرة تتحرك باسمة هنا وهناك.. ملابسها تدل على الثراء الفاحش أكثر مما تدل على الذوق الرفيع. قارب الاحتفال على النهاية. لم يتبادلا حديثاً يذكر ولا شاركت في النقاشات التي يخوضها رفقة أصدقائه المحيطين بهما. كانت تسمعهم بصمت وترمقه بين الفينة والأخرى بحب.

أحست بغربة باردة كالصقيع. الشعور نفسه انتابها عندما اضطرت أن تعيش لأول مرة في بيت والدها. لقد كانت معتادة على تجرع كؤوس مرارة الاغتراب في بلدها. قد لا نحتاج إلى السفر بعيداً حتى نكون غرباء. قد يهاجمنا ذلك الإحساس ونحن في أوطاننا وبين أهلينا. نصبح أحياناً غرباء عن أنفسنا أو عن محيطنا، ومغادرة الذات للذات أشد قسوة من مغادرة الأهل والوطن.

أما هو فكان يعاملها بخوف لم يعهده في نفسه. وبحذر لا تفرضه عليه ملامحها الهادئة. كان صامتاً في حضورها كما لم يفعل مع أخرى قطّ. تخونه الكلمات، فيتلعثم ثم يعود إلى الصمت.

استأذنته للمغادرة معتذرة بتأخر الوقت.

- هلا انتظرت ساعة أخرى. بعد قليل ألقي كلمتي.. ومن غير اللائق مغادرتي قبل ذلك.

أجابته صادقة:

صدقاً لا أستطيع.. تأخر وقت عودتي.

قاطع حديثهما مهاب صديقه الذي تجمعهما به الطاولة نفسها.

- إن أذنت لي رافقت صديقتك حيث تشاء.

لم يرحب بفكرة صديقه قطّ فهو يعرفه. رجل مغامرات. مثله تماماً، يهوى المرأة اللغز. مع ذلك وجد نفسه يستشيرها ليعرف رأيها:

- أتسمحين لمهاب بإيصالك؟

أجابت ببراءة:

- نعم لا بأس بذلك.

لم يسمح لها مهاب كما فعل صديقه بالصمت. كان في طريقهما إلى منزلها يسألها السؤال تلو الآخر. أحست لوهلة أنها تخضع لاستنطاق.

- دعيني أخبرك أن أحمد نادراً ما اصطحب فتاة معه إلى مناسبة مثل هذه. واسمحي لي بالسؤال عن طبيعة علاقتك به.

أغفلت وقاحة سؤاله أمام اعترافه. هي إذاً من نخبة نسائه، ومن تلك الصفوة التي يجازف بإدخالها إلى أوساطه المعقدة. ستكتفي بندرة اصطحابه لامرأة، مع أنها تتمنى لو كانت أول فتاة يكسر لأجلها كل قواعده الصارمة.

أجابت بابتسامة مؤدبة:

-كان قد جمعني بالسيد أحمد حديث قصير عن وطن نختلف فيه كثيراً، وفي نهاية الحديث دعاني للحفل علّي أختلط بكم.. ربما أفهم معارضتكم الشرسة لبلدي وإصراركم على تقسيمه وتفرقته.

أخذ الحوار معها منحنى آخر لم يخطط له.. لم يكن يتصور أن تخوض معه في شؤون السياسة.

سألها بخبث مغيراً اتجاه دفة الحديث:

- حسبتك حبيبته.

أجابت بتوتر:

- لا .. لست كذلك.. نحن أصدقاء فقط لا أكثر ولا أقل.

أسعدته كذبتها تلك.. هو لا يعلم أنهما مشروع حب حقيقي. ربما أغفل تلك الحقيقة المحتملة عمداً، ليريح ضميره وهو يحاول قطع الطريق على صديقه.

سألها وهي تستأذن:

- هل لي بدعوة؟

قاطعته:

- لا.. آسفة.

ذهبت مسرعة حتى توارت عن أنظاره.. وقف يتأملها في حنق وغضب. لم يستوعب ما حدث له..

لامست عقارب الساعة حدود الثامنة مساء.. انتبهت إلى أن حركة المقهى الصغير قد خفت، وأن الرواد يطيلون النظر إليها، مستغربين جلوسها لساعات لوحدها.. كما استغربوا بكاءها الصامت وشرودها الملحوظ.

غادرت بخطى متثاقلة بعد أن أقنعت نفسها بوجوب الرحيل. سترحل وإن كان طريقها مجهول المعالم. ستقضي وقتها رفقة جوليا ونور اللتين أهملتهما عن غير قصد.

ما يؤلمه قربه البعيد. هو في كل مكان تزوره يختبئ في زاوية لا تمكنها من رؤيته. يراها تكابر لتهزم ذاك الحنين إليه. لا يجرؤ على الاقتراب منها أبداً. يعاملها كأي غريب، وبقلبه ثورة حنين لا تهدأ...لم يعش لوعة غيابها كما اليوم. كان يكتفي بحضورها البعيد. برؤيتها تتألم لأجله فيمني نفسه بصفح قريب وعودة أكيدة.

لكنها تعود إلى وطن أنذرهما منذ البداية أن مصير

علاقتهما هو الموت البطيء. مذ عرفها أمسى يعيش لأجلها فقط. وتلك مصيبة الحب، نختزل العالم كله في شخص، وكأننا أخذنا من القدر ميثاقاً بالبقاء معه طول العمر. وفي الغياب لا نفتقده فحسب، بل تضيع النفس معه. فنحن برفقته أمسينا أشخاصاً آخرين، ولا يمكننا التعرف إلى ذواتنا.

قالت له يوما بعدما دعاها إلى أحد المطاعم الباريسية الفاخرة:

- أتعلم أن اللقاء لا يختزل بثمن؟

- أعلم.. ما أجهله هو سبب قولك هذا.

قديماً حين كان الرجال يملكون الوقت لا المال، كان الحب يقدر بالعطاء والسخاء. كان بذل المال مقياساً لتقدير الحبيبة. وكانت هي تحب أن ينفق عليها رجلها ما يملك وألا يبخل عليها بشيء لتتيقن من حبه لها. أما اليوم فيملك الرجال المال لكن لا وقت لديهم، لذا تغيرت المفاهيم كثيراً. الرجل الذي يحرص على التواجد في حياة من يحب هو الذي يحب حقاً. يبهر أنثاه في كل مرة تلقاه. يتحايل على الزمن فيسرق منه لحظات يغذي بها جذور الوصل .لكن ماذا لو ملك الرجل

المال والوقت؟ إذن عليه أن يكون على استعداد بالتضحية بهما معاً عله يثبت محبته.

لا يحتاج الحب إلى إثبات، بل يحتاج إلى إحساس قوي يجتاز عراقيل الشك ليصل بأمان. هل الشك طبيعة ملازمة للمرأة؟ الغيرة ملح العلاقة والشك في الحب لا يجوز.

-أتغارين؟

- لا أعلم.. لم يختبر أحد غيرتي لذا لا أعلم إن كنت أغار.

رد عليها مازحاً:

- لن تحتاجي إلى أن تعيشي التجربة . هي فكرة حاولي تخيلها وجربي تقبلها.

أجابته بغضب مدركة كلامه:

- إن رأيتك مع غيري قتلتك.

وحدها عفويتها تخلق في داخله ذاك المرح لتبدي انزعاجها في كل مرة تسمع ضحكاته العالية على كلمات تفوهت بها على عجل. لم يكن يعلم وهو يعترف لها بحبه أنهما سيعيشان القصة ذاتها التي جمعتهما. لم يكن يريد نهاية

مأسوية كالتي يسطرانها اليوم. هي بنت الصحراء أخذت من طبيعة موطنها الكثير. جمالها في قسوتها وصعوبة الوصول إليها. كنزها سر دفين يحتاج صبراً وشجاعة.

هي أميرة تحتاج إلى رجل جسور تطمئن إليه.. تهبه حباً يعطيه الحياة.. قد يخيل لمن لا يعرفها أنها امرأة بلا إحساس. صرامة قراراتها توحي بذلك. كانت تعامله كما تعامل غيره لكن إحساسها نحوه كانت له بصمته المميزة.

الحب هو الإحساس الوحيد الذي لا نستطيع مقاومته. ما أن يجتاح قلوبنا ونطمئن إليه حتى تدق أرواحنا ناقوس الخطر تجبرنا على الاعتراف به. إن لم يكن بالقول فبالفعل.

قطع ذاك الصمت المقلق بينهما بسؤاله:

- ألا ترين أننا رغم معرفتنا لا نزال نجهل أشياء كثيرة عن بعضنا؟

- ربما الخوف من يجعلنا نكتفي بمعلومات بسيطة كالتي يملكها كل منا عن الآخر.

- مِمَ تخافين ؟

- من حياتك.

- ما الذي يخيفك في حياتي.

- المجهول.. أخاف من حقيقة أجهلها عنك قد تنهي صداقة جميلة تربطني بك. أخاف من أفكار قد تشوه علاقتنا. أخاف إن علمت ما أجهله عنك أن ينتهي حلمي الجميل.

ذاك الإحساس القوي، والصادق بالأحداث هو ما يؤرقها ويخبرها أن وراء هذا الرجل سرّاً كبيراً.

بدأ حديثه عن نفسه كمن يريد أن يؤكد لها أن ليس في حياته ما يخيف.. أراد طمأنتها وإعدادها لحياة قد تجمعهما ذات يوم.

- أنت لا تجهلين عن حاضري أي شيء. سأخبرك عن سنوات قضيتها ولم تكوني فيها.. سنوات في المنفى.

أجابت مستعينة بفطنتها:

- أتخبرني عنك أم تشن حرباً على وطني؟

- ذكاؤك يضفي عليك سحراً مبهماً.

ردت مازحة:

- لا تصالحني بكلماتك، فأنا وطنية حتى النخاع.

- ليتك تعلمين.

- أخبرني إذن.

- أنا مثلك تماماً ابن الصحراء. أعشق ترابها وأتمنى العودة إليها. الفرق بيننا أنك تعيشين في أراضي الصحراء المحتلة، وأنا أعيش في بقعة صحراء جزائرية. عشت رفقة والدتي وأخي نحلم في كل يوم مئات الأحلام. نقتات على ما تجود به المنظمات الدولية علينا من خيرات. حملت طول عمري اسم أب خائن لوطنه عائد رفقة ابنته، أختي الوحيدة إلى المدن الصحراوية، لم أعش مع والدتي سوى سنوات طفولة كئيبة لأنتقل كأخي وكغيرنا من أبناء المخيمات إلى العيش في حضن إحدى الأسر الأجنبية لنكمل تعليمنا. عشت وحيداً وسط أسرة كوبية لم تبخل عليَّ مادياً ولا معنوياً في شيء، مع ذلك كنت معهم كاليتيم أبكي أباً جباناً وأماً أعلم أنها تعيش وحيدة. أما أخي فقد انقطعت أخباره، كأغلبية أبناء المخيمات المهاجرين. من اعتاد حياة الرفاهية لا يعود إلى الفقر، ومن ذاق حلاوة الحرية استصعب مرارة الأسْر وأغلبهم وإن لم يعترفوا أسرى لقضية أنهكهم الدفاع عنها، وسرق منهم أجمل سنوات أعمارهم.

تخرجت في كلية الطب بتفوق فأذهلت من حولي. ليس ذكائي وحده من ساعدني في ذلك، بل هو الشوق

لامرأة وهبتني حياة وكرست لي أخرى...كنت أرتب أموري للرجوع إلى وطني، حين فوجئت باتصال قلب حياتي. والداي بالتبني توفيا إثر حادث سير. بكيت فراقهما بحرقة. لم أتوقع أن أفعل يوماً لأنني لم أتقبلهما ولم أرضَ بديانتهما وعاداتهما، لكن لا أنكر فضلهما عليَّ. فهما لم يبخلا عليَّ بشيء. رعياني رغم رفضي لهما. أحباني ربما أكثر مما فعلت عائلتي. مع ذلك كنت كلما رأيتهما أتذكر عذاب والدتي ونحيبها وهي تودعني.

وجدت نفسي وريثاً لثروة أبوين لم أعتبرهما كذلك لحظة.. أجلت سفري بضعة أشهر أتممت فيها مراسم الدفن. وعدت إلى خيام الوطن ثرياً.

لو تعلمين أي حنين كان في قلبي وأي شوق ملأ فؤادي لبقعة أرض مستأجرة. استقبلوني كما الأبطال، ومع ذلك كانت أعينهم تسيل حزناً.

سألتهم عنها.. عن التي تركتني مجبرة.. عن امرأة فارقت مرغمة أولادها الثلاثة. أنثى تركها زوجها في عز شبابها معلقة بين الزواج والطلاق، وفر حيث الحياة الكريمة حسب ما زعم.

أخبروني بما استطاعوا أن يصوغوه من كلمات، أنها توفيت في إحدى الزيارات إلى المناطق الصحراوية .

سألته بمزيج من خوف:

- زيارات ؟

- تلك الزيارات التي تنظمها الأمم المتحدة، وتحاول من خلالها تجديد صلة الرحم بين الأسر المتباعدة. أسر حكمت عليها الأقدار بالعيش في وطن ينقسم إلى أوطان كثيرة لتفرق بينها سنوات غياب لا تنتهي. تخيلي أن يذهب الإنسان لبضعة أيام لزيارة أسرة فارقها منذ سنوات خلت؟ زيارات تشعل فتيل الشوق في القلوب لتحرق الذات بعد ذلك.

والدتي التي فارقت ابنتها منذ سنوات عمرها الأولى، كانت ترفض الذهاب إلى العيون رغم أن الشوق كاد يفتك بها. فهي في غيابنا كانت تقتات على حبوب الشوق السامة. كانت تعيش مع الناس كل يوم، وتموت وحدها كل ليلة. تموت مع كل ذكرى، مع كل إحساس، مع كل نفَس.. وفي كل آن.

كانت ترفض تقديم طلب لزيارة زوجها وابنتها. فالأول في نظرها خائن آثر العيش مهاجراً واختار حياة أخرى مع امرأة أخرى. والابنة يرفض قلبها وصلاً لن يدوم سوى أيام معدودة. هي تعلم أنها إن ذهبت لن تعود.

لكنها غريزة الأمومة.. لم تستطع جعل نار شوقها تهدأ يوماً. صبرها انقضى حين علمت أن ابنتها الوحيدة ستتزوج.

تقدمت بالطلب متجاهلة سلسلة أفكار تفتت كيانها.

قبل العرس بشهر تقرر اللقاء .هاتفتني والدتي باكية.. أخبرتني عن ذاك العذاب الذي لم يعشه بشر غيرها.

كانت نبراتها الممتنة تذبح روحي... تصوري أن تشكر أم ابنها على وفائه وإصراره على وصلها؟ ممتنة هي لأبسط حقوقها، ذاك أنها اعتادت السلب والنهب ممن حولها.. جعلوا منها امرأة لا تؤمن بشيء ولا تثق بأحد.

تمنت أن يجود عليها الزمن بلقائنا نحن أولادها الثلاثة للحظات.. حينها لن تتمنى شيئاً أكثر من الموت، وصورنا آخر ما يرتسم في ذهنها.

كنت أنوي تحقيق حلمها الوحيد، لكن الزمن جعلني أخلف وعدي مرغماً.

وصلتُ إلى العيون في ساعات الصباح الأولى. كان كل شيء في تلك المدينة غريباً.. تلك الأرض ترحب بها. مع ذلك كان ترددها كبيراً وخوفها أكبر. الشوق وحده كان يهدئ من روعها.

وجدت أشخاصاً كثيرين متجمهرين لاستقبالها. بين الوجوه لم ترَ سوى وجه واحد يضيء وكأنه سرجان أنار الظلام. بين القلوب لم تسمع سوى نبضات مجنونة كتلك التي تدق في قلبها. هو عناق واحد وهبت فيه ابنتها كل معاني الحب.

لم يخبروني عن موتها إلا حين عدت. أجابوني حين سألت عن انقطاع أخبارها أنها آثرت البقاء مع ابنتها. لم أعب عليها ذلك كما أفعل عادة حين أسمع أخبار العائدين. كنت أعلم أنها لم تعد تهتم بالسياسة. سياسة القلب كانت ستجبرها على البقاء وربما لو كان كتب لها العمر ما كانت لتعود يوماً.

صمت حين رأى دموعها تسابق أنفاسها المتقطعة. كان عليها أن تعلم أن رجلاً لم يعرف سوى الألم لن يعطيها يوماً سوى الألم.

أحاديث الحب الصادقة تحمل معها شجناً من نوع خاص. حين نحب تتوحد القلوب وتتوحد الأحزان أيضاً..

هي أكثر من يحس بألمه .. كان يحتاج طوال حياته أن يخرج عن صمت بدأ ينهكه .. كان يحتاج أن يبكي فلا يحس

انتقاصاً لرجولته.. شاركها دموعها بصمت. في حضرتها فقط يكون ذاك الطفل العفوي الذي لا يهتم لردود فعل من حوله.

بعد دقائق استجمعت فيها رباطة جأشها، كفكفت دمعها بصعوبة. نظرت إليه بغضب يكسره الحزن، ثم قالت محتجة.

- لِمَ كل هذا الحزن .. لماذا نصر على الألم؟. لماذا نحاول تغيير وجهة الأقدار فنكتب علينا الموت البطيء عن طيب خاطر؟

أكملت مجيبة على نظراته المستغربة.

- لماذا لا تنهي اغترابك ونعود إلى وطننا معاً، صحراء داخل حدود مغربية؟.

أخذ الحديث بينهما على غير العادة طابعاً سياسياً. كل منهما يدافع عن وطنه. الفرق بينهما أنه معها يحس معنى الكذب.. يحس أن كلامه ما هو إلا أعذار واهية يبرر بها حقده.

هو في الحقيقة لا يحقد على بلد أخبروه منذ طفولته أنه يستعمر أراضيه ووطنه..كل حقده كان على ما عاشه من بؤس وفقر وفراق ويتم. هو يحتاج إلى جهة يلومها على كل ما لحقه من عذابات.

منذ سنوات شبابه الأولى كان يبحث عن حق يعتقد أنه

ضائع، كان من السباقين إلى الانخراط في المنظمات الحقوقية، معتقداً بسذاجة أنها ملجأه الوحيد .

الغرب لا يفوت الفرصة أبداً ليفرض علينا سطوته. هم من يقيموننا ويقدمون لنا النصيحة بلهجة آمرة. فرضت الدول المتقدمة علينا منظمات حقوق الإنسان، وكأننا ما علمنا أن للإنسان حقاً إلا من خلال فلاسفتهم وعلمائهم. مع ذلك كان المواطن البسيط يعلم أن حقه الضائع لن يعود، وأنه لا يحتاج إلى أن يتصالح مع وطنه بل حاجته الأولى هي في التصالح مع ذاته.. شهد ذاك المواطن من الويلات ما جعله يؤمن بأن البلاد التي تجور لم تعد عزيزة، وأن الأهل الذين يضنون لن يكونوا أبداً كراماً.

رغم أن أحمد لم يعش سوى سنوات طفولته الأولى في الخيام، فإنه يحدث أصدقاءه العرب بلهجة حسَّانية سليمة لا تشوبها شائبة. لا يفوِّت حدثاً اجتماعيّاً للدفاع عن قضيته والتعريف بها. لايزال ينفق بكرم وسخاء على الجمعيات الخيرية الداعمة لقضية الجاليات الصحراوية .

أما منايا فرغم اغترابها عن بلدها لسنوات، لاتزال وفية

لذكرى الوطن. تغذيها باتصالاتها مع أهلها ومتابعة نشرات أخبار قناة العيون الجهوية.

تعرف بالصحراء في تلك اللقاءات التعريفية بالمجتمعات في جامعتها .. لاتزال وفية لزي الملحفة الذي يحرم على الفتاة البالغة في المدن الصحراوية ارتداء غيره داخل حدود الصحراء.

أجابها بعد صمت:

- ما فائدة النقاش وكلانا يعلم أنه لم يقتنع ولن يقتنع؟

لم يملك أمام صدق كلماتها إلا أن يلين. قال باستسلام مبتسماً في ألم:

- إذا أنا اقتنعت بكلامك، أتحسبين أنني سأعترف لك بذلك؟ أوطاننا وإن جارت علينا عزيزة، ولا نملك إلا أن نحبها ونبقى لها أوفياء.

أجابته وقد رأفت لحاله:

- وطنك هناك حيث ينتمي كلانا ..هو صحراء داخل حدود مغربية.

اكتفى بالابتسام وغير دفة الحديث:

- وأنتِ، ماذا عنك؟

- لا يوجد في حياتي ما تجهله.

- بلى.

- ماذا ؟

- لماذا أنت وحيدة رغم أن لك عائلة كبيرة؟

- العائلة ليست بعدد الأفراد، بل بدفء المشاعر. نبع المحبة في حياتي نضب.. جف وانتهى.

تابعت حديثها بأسى عميق:

- بت أتعود فقد الأشياء قبل امتلاكها. أهداني الزمن من الخيبات ما جعلني أبتسم لأحزاني. لا لأقهرها، لكن لأغريها بعقد هدنة معي. ما عدت أتوقع حيازة أي شيء، ولا أريد شيئاً سوى أن أعيش بسلام. لم أعد أؤمن بوفاء البشر.

استأنفت ورنات الحزن تنال من صوتها، في حين ظل ينظر إليها وشجعها بإشارات من رأسه على الحديث:

- أبي رجل لا يهتم بشيء إلا بوجاهته الاجتماعية التي رعاها على حساب أبنائه. ارتبط بوالدتي حين توفيت زوجته الأولى أم أبنائه، وتخلى عني وعن والدتي بعد مرضها، ونسينا بعد زواجه من امرأة أخرى.

إخوتي وأخواتي تعرفت إليهم حديثاً، وليس بيني وبينهم غير علاقة فاترة.

بت أشعر أنني مجرد نحس على كل قريب مني. ربما هو أثر الصدمة بعدما فقدت قبل سنوات أعز صديقتين.. ثم جاء رحيل أمي ليطفح بي كيل الأحزان.

سكتت وهي تتأمل أثر كلامها على قسمات وجهه... شعرت أنها اليوم أكثر تصالحاً مع ذاتها، وهي تحاول إلجام خيالها الصاخب كي يهدأ.

أردفت حين رأته صامتاً لا يرد كأنها تحذره :

- وجدت راحة البال بعد صراع طويل مع الذات. لا مكان في حياتي لصدمة أخرى. أنا من الحزن شربت حتى اكتفيت.

تمنت فيما بعد لو أنه فهم تحذيرها. لو جنبها صدمة يعلم أنها لن تتحملها. لم تفهم دفاعه عن نفسه وهو يؤكد لها أنه لم يكذب عليها يوماً. إنه يعتقد أن الكذب هو تزوير الحقائق فقط، وينسى أن الحقيقة الناقصة هي كذبة كاملة.

ما يؤلمها اليوم أنها لا تستطيع الصفح .. وإن أرادت.

٧

عادت إلى البيت بخطى متثاقلة، فوجدت نور وجوليا في انتظارها بقلق. لم تأبه بأسئلة تنطق بها أعينهما. لم تخبرهما أنها لم تلقَه، وأنها كانت تجوب بذاكرتها دروب الحكاية. دلفت إلى غرفتها في صمت، ثم خلدت إلى نوم عميق.. تعبُ الجسد فاق حرقة الروح.

- استيقظت على منبه الهاتف. تذكرت أن اليوم هو موعد افتتاح معرض غابرييل الذي تريد أن تتنصل منه، لكنها لا تعرف كيف. هي تعلم أن العم غابرييل صديق والد جوليا، وهو لن يقبل منها أي عذر، خصوصاً وأنه يعلم بسفرها في الغد، لذلك زاد إصراره فلم يرضَ أن ترحل دون أن تودعه.

كانت تحاول إقناع نفسها بأن الحضور لن يكون سيئاً، بل هو فرصة جيدة لقضاء وقت ممتع مع صديقتيها. لم تتقن الدور وهي تثني على مظهر جوليا الجميل. وتقتلها نظرات الشفقة في

أعين صديقتيها. يبكيان ألمها بصمت. تحاول عبثاً إضفاء روح المرح التي تميزها. خاطبت نور برجاء:

- ألم تغيري رأيك بعد؟ هيا رافقينا.

كعادتها تحتاج نور إلى ركام من التوسلات لتوافق على قرار يتخذنه. لذا اعتادتا دائماً الإلحاح عليها لتقبل في آخر لحظة. تلك هي عادتها. وقد تعودتا على طبعها العنيد المتردد، بخاصّة بعد ماعرفتا عن ماضيها ما حرصت كثيراً على إخفائه.

لم تستوعبا كيف استطاعت نور الفتاة التونسية الثلاثينية البسيطة، إخفاء كل ذاك الألم.

لقد تعرفن على بعضهن بواسطة آبائهن، لكن ما أن جمعهن سقف واحد، حتى تمردن على سلطة الأهل. ومع مرور الوقت أصبحن كالأخوات تماماً.

عاشت نور طفولة قاسية. حرمت منذ ولادتها من حنان الأم. كانت تعتقد بسذاجة طفلة أنها هي من تسببت في موت والدتها حين علمت أنها توفيت وهي تلدها. تعتقد أنها من سلبت أمها الحياة. أحست منذ سنوات عمرها الأولى معنى الوحدة، فتلك المرأة التي اتخذها الأب زوجة لن تعوض

أمها. كانت تحرص على بناء حواجز شاهقة بينهما، وتستبسل في صد أي محاولة للتقرب منها. لم تحبها قطّ، ولم تستطع الأخرى رغم محاولاتها الكثيرة تغيير مشاعر ربيبتها نحوها.

عاشت كما آثرت وحيدة. بدأت تتعود على روتين عمرها إلى أن لاح في الأفق طيف أمل. اعتقدت أن القدر يصالحها به. وجدت نفسها تحبه. تتحدث إليه هي التي لا تتقن فن الكلام. تطورت علاقتهما بسرعة وتقدم لخطبتها. اقترب موعد الزواج، لتتلقى صفعة هزت كيانها.

أثناء أحد الفحوصات علمت أنها عاقر. هي إذن لن تصبح أما أبداً. تماماً كزوجة أبيها. أحست للحظات أن الأقدار تنتقم من تصرفاتها الأنانية نحو امرأة حاولت كثيراً التقرب منها. أحست أن الأيام تثأر منها من جفائها لامرأة لم تقترف ذنباً سوى أنها رضيت بنصيبها في الحياة.

ترددت كثيراً قبل أن تبوح له بسرها. كانت تقف حائرة على حافة القرار. أتخبره وتضع مصيرهما بين يديه، أم تسطر نهاية مبهمة لحكايتهما وترحل دون مقدمات؟ ليالٍ كثيرة شهدت ألمها ونحيبها الصامت. خلصت في النهاية إلى حل

اعتقدته ناجعاً. حل كل أنثى مغلوبة على أمرها. اختارت الهرب. بكلمات قليلة حرصت على أن تنهي الحلم وأن تفيق من سبات عميق جميل. رمت بنفسها إلى واقع كانت قد اعتقدت أنها تحررت منه. هي بضع كلمات سددتها بإتقان إلى غروره وكبريائه، تأكدت أنه لن يسأل عنها بعدها، ولن يبحث عن أسباب رحيلها. أخبرته بكل بساطة أن هناك آخر. إن الرجل يكفيه أن يقطع عليه آخر الطريق إلى قلب حبيبته، لكي ينسف حبها في قلبه. يقتل الذكرى ثم يلملم كبرياءه ويمضي في طريق النسيان. قبلت نور عرضاً للعمل في فرنسا.. أخبرت والدها وانتهى كل شيء.

كانت منايا رفقة صديقتيها تتأملان المعرض. لوحات متعددة المعاني. ألوان تتحدث معلنة عن فن وذوق رفيعين. ابتسامات تشق طريقها بين الحاضرين دون أن تحدد وجهتها... كلمات إعجاب وافتتان مبعثرة. وجوه كثيرة يصعب على المرء تفسير إيحاءات ملامحها.

هي مثلهم هنا للاحتفاء بالعم غابرييل والثناء على أعماله المتقنة. لكن روحها تحلق مع كل لوحة إلى مكان بعيد لا

يعلمه غيرها. تداعب روحها الألوان المتناسقة. تستفز شعورها وتهدهدها وترحل بها حتى تتوغل في تخوم الحكاية.

أجابت غابرييل حين سألها عن موعد سفرها:

- يبدو أنني لم أقنع نفسي بعد بوجوب الرحيل. لا أقوى على فراقكم.

- إذاً لا ترحلي

ليت الأمر بهذه البساطة. ليتها تستطيع البقاء، لكن جرحاً نابضاً في نواة كرامتها يحثها على الرحيل.

انتظر بضع دقائق متوتراً يحاول محاربة رغبته في الاقتراب منها. مراقبته لها تحدث ذاك الإحساس بتأنيب الضمير الذي اعتاد وخزاته مذ افترقا. يتجول معها في أرجاء المعرض دون أن تراه. تستوقفه اللوحات ذاتها التي تثير انتباهها. يقرأ معها ما وراء الألوان. يرثي معها حباً محتضراً تأبى الروح مغادرته.

أحست بنظرات تخترقها. شعرت بوجوده قربها. حاولت أن تتخيله شاخصاً أمامها.. تشممت رائحته في أجواء المعرض. ثم صعقت لرؤيته.

تسمرت مكانها للحظات لا تقوى على الحراك. لا تدرك حقيقة إحساسها. كانت أحصنة الحب في قلبها تركض بلا أعنة.

اكتفى بإطالة النظر إليها. تمنى لو استطاع أن يوقف الزمن فيبقيا على هذه الحال إلى الأبد. أخرجه من تهويماته تذكره لآخر حديث بينهما على الهاتف. تيقن بعده أن استمرارهما معاً قد بات مستحيلاً.

تذكّر حين قالت له بحزم:

- إنني أشك كثيراً في موافقة أهلي على الاقتران بك، لكن إخبارهم بعلاقتنا مجازفة تغريني كثيراً باقتحام غمارها.

دائماً تحدثه عن الإنسانة التي خلقت بداخلها منذ عرفته. تصف له بفرح أحاسيس لم تعشها إلا بحضوره في حياتها. كانت تحثه دوماً أن يكون أهلاً لحبها. كان يعلم أن حياتها لم تعد تتحمل مزيداً من الألم.

كم يؤلمه أنه لم يكن أهلاً لحبها ولثقتها به. كان يعتقد أنه سيجد الطريقة والوقت المناسبين للاعتراف بسره، وكان على ثقة أنه سيعثر على الوسيلة الفضلى لإقناعها به. لكنه القدر

حين يباغت، يعبث بكل المخططات، ويجعلنا ندرك كم نحن ساذجون.

يسعد كثيراً في كل مرة تشاركه ذكريات طفولتها. يحس أنه قريب جداً منها وهي تصف له عائلتها وصفاً دقيقاً، مع ذلك لم يرتح يوماً لحديثها عن قريبها سيداتي. كانت تخبره أنه الوحيد الذي يحرص على التواصل معها من أبناء عمومتها، وأنه بمثابة الأخ الكبير لها. كانت تقول له بلهفة مشتاق:

- سيداتي هو الأخ الذي لم تلده أمي.

يجيبها بغضب يعجز عن إخفائه:

- لا يوجد إخوة كذلك.

- ماذا تقصد؟

- بكل صراحة أنا لا أرتاح لعلاقتك به.

- يجب أن تعرفه، فهو واسطتنا عند أبي.

- أخاف أن تفرق الواسطة بيننا.

تحاول عبثاً إقناعه أن ابن عمها حين عرض عليها الزواج في سنوات مضت إنما كان يريد حمايتها. كانت مقتنعة بتبرير سيداتي لها خصوصاً عندما تقبّل رفضها برحابة صدر وتمنى

لها التوفيق وساعدها كثيراً في إتمام إجراءات سفرها إلى فرنسا.

ترددت منايا كثيراً قبل أن تخبر سيداتي عن أحمد. هي تعلم مكانة عائلتها في الصحراء. لا تعرف كيف تقنعهم به، وهي نفسها معترضة على مناخ سياسي لا رغبة له في العيش خارجه.

تلَبَّستْها جرأة نافرة. أخذت نفساً عميقاً.. ثم اتصلت بسيداتي. أخبرته بحكايتها الوليدة. توسلته بخجل أن يتفهم، وترجته أن يساعدها، فهي تعلم أنه الوحيد القادر على مساعدتها. سألها بهدوء يبشر بعاصفة هوجاء:

- هو من البوليساريو إذن؟

أجابت بتوتر طبع نبرات صوتها:

- هذا عيبه الوحيد. هو في الحقيقة ليس عيباً. ما ذنبه في انتماء وجد عليه أهله؟.

أجابها بعصبية:

- يبدو أنه أقنعك بأفكاره. أتعلمين أنك ستتخلين عن الجميع لأجله؟ عن أهلك ومجتمعك ووطنك؟

تابع مستنكراً

- أيستحق كل ذلك؟

سألها وهو يعلم أنه لا يوجد شخص يستحق أن نتخلى لأجله عن كل ذلك. لكن إجابتها جاءت صادمة:

- نعم يستحق.. إنه يستحق كل ذلك.

أضافت مستدركة:

- أقصد أنا لا أتخلى عن شيء. لقد اتفقنا على أن يحتفظ كل منا بآرائه لنفسه. سنكمل رحلة العمر معاً وسيحتفظ كل منا بقناعته. لسنا استثناء، بل هناك الكثير من أمثالنا. تختلف أوطانهم، لهجاتهم وحتى أديانهم، مع ذلك يكملون العمر دون أن يتعثروا باختلافاتهم.

قاطعها محتداً:

- لكنه عدو.. أتكملين رحلة العمر مع عدو؟

أقفلت الخط باكية. تستعيد كلمات سيداتي. هل يعقل أن يكون أقرب شخص إلى قلبها عدواً؟

يكفيها إحساسها نحوه لتعرف أنها مستعدة للتضحية بكل شيء لأجله. جنون الحب كما تقول صديقاتها هو تماما

ما أصابها. حبها له جعلها تستسلم وهي مدركة كل المخاطر والعواقب .سيعيشان معاً كما خططا لذلك، وكما تعاهدا في مدينة شهدت لقاءهما. ستشهد ميلادهما من جديد. سيفران من كل ما من شأنه أن يفرق بينهما. لن تعود إلى وحدتها بعد أن عرفته. لن تستطيع ذلك وإن أرادت.

فاجأها سيداتي بزيارته يوماً. جاءها مبتسماً كعادته مشرقاً كعادته. لم تنجح رغم محاولتها في سبر أغوار نفسه، وما تفصح عنه تقاسيم محياه. لا تدري أتنم عن العتاب والحزن أم الرضا والفرح.

حدثها عن أحوال العيون والأهل ومدى شوقهم إليها، لينهي حديثه مباركاً لها.

أجابت بدهشة:

- الله يبارك فيك. لكن على ماذا؟

- على عريس المستقبل. يفترض أنكما الآن في فترة خطوبة غير معلنة.

أجابته بفرح فتح جراحاً بداخله:

- هل أنت موافق؟

- سعادتك تهمني.

- هل ستخبر العائلة؟

- لا تهتمي.. إذا وافقت أنت أضمن لك موافقتهم.

كلماته الواضحة يلفها من الغموض ما جعلها تقع في حيرة. هو إذن يدعمها. لكن لِمَ كل ذلك التشكيك في موافقتها. إنها تحس أن وراء هدوئه عاصفة لم تعلن عن نفسها بعد.

ردت عليه مرتبكة:

- أنا لا أريد الارتباط به فقط، بل أحتاج إلى ذلك.. هو أملي الوحيد.. أريد حياة بريئة نعيشها بسلام. أنا في الحقيقة لا أهتم بالسياسة.. أحب وطني وأعشقه. الصحراء المغربية أنتمي إليها وتنتمي إلي.. أعدك أنني لن أتأثر يوماً بأفكاره.

آلم سيداتي كثيراً أن تتحدث منايا عن أحمد بكل هذا الحب. هي طعنة تسددها لكرامته، غير آبهة بمشاعره الصامتة تجاهها. أيعقل أن الحب قد أعماها حتى أصبحت لا تميز حقيقة ابن عمها الماثل أمامها؟ أحس أنها تتعمد تجريحه.

قاطعها ووجهه قد احمر من الغضب:

- وعائلته ما ذنبها؟

ردت مستفسرة:

- أي عائلة تقصد؟

أجابها بسرعة وهو يشيح عنها بوجهه:

- زوجته وابنته. أتفعلين بهما ما فعلت أخرى بك وبوالدتك؟

لم تستوعب ما قاله.. أم أنها لا تريد أن تستوعبه.. شعرت بالغثيان والدوار يملآن منها كل ذرة من الكيان.. سقطت منهارة كنقطة ندى تنفضها يد عابثة عن ورقة وردة يانعة ذات صباح.. تراءت لها كل حدائق أحلامها تحترق، وكل بروج آمالها تتشظَّى.. تأكدت أنها كانت غارقة في بحر من الآمال المغتربة، آمال كالرمال تَسُفُّها رياح عاتية في ليالي الخريف الممتدة في عمرها الفتي.

لم يستطع سيداتي أن يفسر قساوته عليها. ما كان له أن يخبرها بحقيقة يعلم أنها تخفى عنها بهذه الطريقة الفجة المفاجئة. لقد اكتشف أنه كان يمهد لطريقة تنصفه وتشوه صورة أحمد أمامها.

عاد سيداتي إلى المغرب راضخاً لرغبتها، بعد أن وعدته

بإنهاء علاقتها بأحمد، وأنها ستعود فور انتهاء سنتها الدراسية، وتحصل على شهادة كانت هدفها منذ مجيئها إلى باريس. عاد وهو مطمئن. لقد أسدل الستار على آخر فصول حكاية كانت تؤرقه.

كان يدرك أن قلب منايا لن يتحمل صدمة أخرى، وأنها لن تختاره زوجاً في يوم من الأيام. كان متأكداً أنه فعل بنفسه مثل ما فعل بأحمد. لذلك كان يتفهم جفاءها في الرد على مكالماته، وحديثها المقتضب في كل مرة يسألها عن أحوالها وعن دراستها. مع ذلك كان يلح عليها في العودة سريعاً بعد انتهاء دراستها. ولو قام بزيارة أخرى لها، لاكتشف فظاعة الألم الذي شرع يعتصر حياتها. لقد عزَّ عليها أن تجد نفسها سجينة في قاع بئر عميقة من الأحزان، حيث رمت بها كلمات ابن عمها. لم تقبل كذلك أن تتأخر عنها هذه المعلومات التي أخفاها عنها أحمد، ولم تكتشفها إلا بعدما توغلت في بحار حبه إلى الأعماق.

أسئلة كثيرة لم تحفل بإيجاد ردود عنها.. كانت تقتلها وتميت إحساسها .. كل لحظة...إنها ترى الفراق تلوح غيومه في الأفق.

لم تكن تتخيل يوماً يمر دون أن تراه أو تسمع صوته. إنها لن تفارقه وحده، بل ستهجر معه كل إحساس بالحب.. ستودعه بالدموع نفسها التي ودعت بها والدتها وصديقتها ومدينتها وأحلاماً جميلة أعدتها لتورق رياضاً وارفة تجمعهما معاً.

تمنت لو أن سيداتي لم يزرها.. أو أن ما قاله كان مجرد مزاح ثقيل. لكنها تدرك أنه لا يمزح في موضع لا يحتمل إلا الجد، ولن يكذب في مقام يحتم الصدع بحقيقة ناصعة، يسهل التأكد منها ببساطة.

لكن كيف ستواجه أحمد بحقيقة أخفاها عنها واكتشفتها؟ كيف تخبره عن كونه كذاباً كبيراً ومخادعاً عظيماً؟

لو أنها علمت أي حقيقة أخرى غير هذه لتفهمت. لكنها لن تجرؤ على أن تفعل بأخرى ما فعلته أخرى بأمها وبها. لن تشيد بروج سعادتها على خراب حياة امرأة أخرى.

تذكرت ليالي مضت حين كانت طفلة تحاول فهم حزن والدتها عندما هجرهما والدها ليقترن بامرأة أخرى يحبها. حبه لوالدتها قتله الروتين وذبل مع الزمن بعدما انتهى تاريخ

صلاحيته. كانت تبكي بيأس كلما تذكرت ما عانته امرأة وحيدة مع ابنة وحيدة.

أيعقل أن تفعل هي بزوجة من تحب ما فعله والدها بها وبوالدتها؟ كانت صراعاتها مع نفسها لا تنتهي، وأحزانها جراح نار متقدة بداخلها لا تنطفئ.

في هذه الفترة لم تكن تجيب على اتصالاته. وفي كل مرة يسأل عنها صديقتيها فتجيبانه كما طلبت منهما:

- لقد عادت إلى المغرب لأن أباها مريض.

كان يحس أنهما تكذبان عليه. هو متأكد من أن وراء اختفائها المفاجئ سبباً يجهله.. ولم يسعفه خياله في معرفته قطّ. عبثاً حاول الوصول إليها. يحتاج إلى الاطمئنان عليها أكثر من حاجته إليها. إنه يتمنى فقط أن تكون بخير.

الحب درجات، وأسمى درجاته تلك التي تلغي فيها ذاتك، فتتحد روحك بروح من تحب، وتحرص على أن تعيش بداخله، وتحيا لأجله وله، وتتمنى أن يكون بخير حتى إن هجرك، وفي عز فراقه وتخليه عنك.

مر أسبوع ولم يأت منها أي رد. أدرك كذب صديقتيها

من أصواتهما المتلعثمة ونظراتهما المرتبكة. كان يتساءل أمام نفسه، إن هي عادت إلى المغرب، لماذا لم تتصل بي؟

عزم على السفر إلى المغرب.. أراد أن يعرف الحقيقة، ويجلي الغموض.

سيذهب إلى العيون لا ليحررها كما كان يحلم منذ طفولته، بل ليتحرر هو من قيود الخوف والشكوك والظنون.. ليسترجع حبه الضائع وأمله الهارب، وسعادة أخذتها معها ورحلت.

ترعبه فكرة أنها أجبرت على الرجوع والتخلي عنه. خاف كثيراً أن تكون لعائلتها يد في اختفائها. ربما أجبروها حين حدثتهم عنه على الرجوع. كان يعد العدة لشن الحروب في سبيل الدفاع عن أمله في الاستمرار معها. لا يعلم ما الذي سيخبرهم به ولا كيف سيقنعهم به، لكنه لن يتخلى عنها أبداً.

أخذ جواز سفره الجزائري، وحجز تذكرته إلى مدينة العيون التي يعتقد أنها موطنه المستعمَر. أخذ يمعن النظر إلى تذكرته.. يرى خلالها أحلاماً ماتت وأخرى، ربما ستتحقق، أماني ضاعت وأخرى يلاحقها. تلك الأرض التي أهدته الألم هي اليوم ستعيد له الفرح.

الأرض التي حلم كثيراً بتحريرها، ستحرره من وجعه وستهديه السعادة مجسدة في امرأة.

رن هاتفه فجأة، وقطع سيول أفكاره الجارفة.

رد بلهفة:

- منايا أين أنت؟

ردت عليه بعد برهة صمت وبصوت مخنوق:

- أنا هنا.

- أتستعملين رقمك بالعيون.

- لم أغادر بعد.

- ولكن ...

- أريد أن ألقاك.. الآن وفي المكان ذاته.

أقفلت الخط.

بحث وهو في طريقه إليها عن أسباب تغيرها وتصرفاتها. لكن عبثاً حاول أن يجد تفسيراً لما يحدث. لم يكن سره قطّ ضمن قائمة الأسباب المحتملة.

أحيانا تود أن تشطب مرحلة من عمرك، فتتناساها حتى تنساها فعلا. هذا ما حدث له تماماً.. إنه يحس أنه إنسان حر،

لا يعترف بأي ارتباط أو التزام قبلها. حبها شهادة ميلاده.. شعر أنه قد ولد من جديد يوم عرفها. امرأة تفهمه من نظراته، تحس مشاعره دون أن ينطق. لا تشبهه في شيء، ومع ذلك فهي مثله. يحس أن علاقاته بما فيها الشرعية لا تمس من مكانتها في قلبه. هي وإن لم تكن الأولى لكنها الوحيدة التي تربعت على عرش قلبه وأعلنت نفسها ملكة عليه. لا يملك صد جيوش محبتها ولا أن يسمح لطيف امرأة أخرى أن يعكر صفو حبه لها.

وجدها جالسة وقد شبكت يديها في قلق وتوتر، تنظر إلى الطاولة بإمعان وكأنها تقرأ عليها سطوراً لا يراها غيرها، وتحاول جاهدة أن تحبس دموعاً غزيرة تحفر أخاديد على وجنتيها. اقترب منها في حذر. رفعت رأسها ونظرت إليه بجفنين ذابلين يعلوان وجهها الشاحب الذي أنهكته المعاناة.

جلس بقربها في ارتياع:

- عزيزتي ما بك؟

سحبت يدها من يده بهدوء، محاولة تحاشي نظراته، وتستعد للتحكم في نبرات صوتها. لا تدري أي بداية تليق للتمهيد للنهاية.

وهل هي فعلاً تريد أن تنهي الحكاية؟ إنها هنا عملاً بنصيحة صديقتها جوليا التي أمرتها أن تكون صريحة، فتستفسره وتمنحه فرصة الدفاع عن نفسه، لأنها إن لم تفعل ستعيش دائماً مع اجترار مرارة الندم.

سألها بإلحاح مشوب بالخوف:

- منايا.. أخبريني ماذا هناك؟

أجابته محدقة في عينيه:

- هل أنت صادق؟

- لِمَ هذا السؤال؟

هل سنستمر معا؟

- أعندك شك؟

- أقتل أنت شكي وبدد ظنوني.

أجابها بعد فترة قصيرة بحثت فيها مخيلته عن ماض قريب، فكشف لها عن مشاعر كان قد اعتقد أنها طي الكتمان. أجابها مؤكدا إحساسه نحوها، أرادها أن تعلم أن محبته لها صادقة مهما كانت ظروفه.

- أحبك.

كانت عبارته هذه كفيلة لأن تدك آخر قلاع مقاومتها. لم يسبق له أن صرح لها بحبه بكلمة. كانا يحرصان على أن يوصلا لبعضهما رسائل حب مشفرة دون الاعترافات الصريحة.

أحبك. أربعة أحرف قضت على أي رغبة في الفراق. أنهت غضباً، وخدرت وجعاً كان نابضاً في دواخلها. مع ذلك كانت تعي أن الحب وحده لا يكفي.

- قل لي، من هي؟

بجملتين بسيطتين كشفت له عما بها. أدرك أنها قد عرفت الحقيقة. لم يتذكر تلك الحقيقة إلا حين سألته مرة أخرى:

- من هي؟

لا يدري أي الكلمات يختار ليبرر بها سبب كذبه. بل إنه يجهل السبب الذي جعله يكذب عليها.

منذ أخبرته عن عائلتها وهو مسكون بهواجس مؤرقة... كان يحدس أنها لن ترضى به، ويعرف أن حبهما لن يجتاز عقبة أخرى، ولن يصمد أمام انهيار آخر. كانت سعادته عظيمة حين قبلت به رغم السياسات المتنافرة، والحروب التي قد تلوح يوماً في الأفق. لم يكن ليفرط في تلك السعادة أو يغامر بها.

لذا آثر الصمت إلى أن يُتمَّ إجراءات طلاقه. ذلك أن زوجته الإسبانية كانت تساومه حين عرفت أنه يعتزم إنهاء علاقته بها .

النساء لا يختلفن رغم اختلاف الأزمنة والأمكنة.. المرأة هي المرأة، وبخاصّة العاشقة.. يغريها الانتقام إن أحست بغدر من تحب. هكذا كانت ريتا.. ما أن شعرت أن زوجها يريد الخلاص منها حتى تأكدت أن هناك أخرى. هي لم تنعم بحبه يوماً. كانت تعرف أن زواجه منها لم يكن سوى نجاحٍ لخطة أجادت حياكتها. هو لم يحبها بل وقع ببساطة في شباك أنثى تتقن فن الصيد .ورغم أنها تعترف لنفسها أن ثراءه كان يعنيها كثيرا، إلا أنها لا تنكر أنها تحبه. وكانت طوال فترة ارتباطهما تخضع علاقتهما الزوجية للتنفس الصناعي، وهي تدرك بحدسها الأنثوي أن النهاية وشيكة.

كانت تعرف مواطن ضعفه، لذلك عمدت إلى استغلالها. وكانت واعية أن العائلة بالنسبة إليه مقدسة، وأنه لن يسمح بأن يكرر مع أبنائه تجربته. لن يترك ابناً عربياً يتربى في بيئة أجنبية. تأكدت من نجاح خططها حين ألغى فكرة الانفصال لحظة التقت عيناه بعيني طفلته الوليدة التي تشبهه كثيراً، سلمى ذات الملامح العربية والمسحة الإسبانية. تخلى عن حياته وصار

يعيش لأجلها فقط. بدأ يعتاد وجود زوجته المزعج في حياته. قطع على نفسه وعداً بأن يحمي ابنته.

مرت سنتان لم يكن يجمعه بريتا سوى طفلته. كانا في حكم المنفصلين.. لكنه لم يكن ليأمر قلبه بالانصياع لرغبته. فما أن تعرف على منايا حتى تكسرت كل قيوده.

أخبر ريتا برغبته في الانفصال. أعطاها ما تريد دونما مساومات مادية .

تنازل لها بعد نقاشات طويلة عن أي حق في حضانة ابنته..كان يعزي نفسه بأنه سيزور سلمى الصغيرة في أي وقت يريده. أقنع نفسه بأنها ستكون بخير مع والدتها، وأن ظروفه وهو طفل، تختلف كل الاختلاف عن ظروف ابنته. لن يكون كوالده، بل سيكون حاضراً في حياتها في كل مرة تحتاجه.

كان ما يجمعه بمنايا يجبره على التضحيات المتتالية، لكنه لم يكن يخبرها. في كل مرة يحاول فيها ذلك تموت الكلمات على شفتيه فيعود إلى الصمت.

أحبك.. قالها وهو مقتنع مثلها أن الحب وحده لا يكفي.

تابع حين فطن إلى أنْ لا رغبة لها في قطع ذاك الصمت الموحش:

- كنت أعلم أنك لن ترضي برجل يتخلى عن زوجته وابنته لأجلك.

أتى كلامه صريحاً كنور الصباح ..صرخت دواخلها في صمت. هو إذن يتخلى عنهما بسببي. تمنت لو أنه أخبرها كاذباً أن لا دخل لها في انهيار حياته الزوجية، وأنه انفصل عن زوجته قبل أن تدخل هي حياته. آلمتها صراحته كثيراً فجاء قرارها حازماً.

نادته بأسى:

- أحمد..

طلب منها بنظرات متوسلة أن تتابع الحديث.

- إن كان في قلبك ذرة حب لي أو حتى ذرة احترام، إنسني وكأننا لم نلتق يوماً. لا أريد بعد اليوم أن يربط بيننا أي شيء. حتى الذكريات.

قاطعها بصوت متهدج كحشرجات محتضر:

- هل نستطيع؟

- سنفعل.

٨

ها هما اليوم يلتقيان بعد افتراق. لكنهما لا يجرؤان على الحديث. لا يفصل بينهما سوى بضع خطوات. تحيط بهما وجوه غريبة لا يعرفانها، وكأنها تشهد آخر فصول الحكاية.

هي تهفو إلى أن يفاجئها شخص ما بأن كل ما مر بها مجرد حلم مزعج. تمنت لو أنها تراه اليوم لأول مرة، تعجب به لأول مرة وتغرم به لأول مرة. تريد العودة إلى خط الانطلاق، اشتاقت إلى حديثه الجميل، وضحكاته الصادقة، ونظراته الخجول.

هو أيضاً يأمل أن يذيب صقيع المسافات. يدرك أن الحديث معها لن يجدي نفعاً. لذلك يطيل النظر إليها ولا يكتفي. ما يقهر إحساسه أنه يقدّر تصرفاتها نحوه، ولا يستطيع أن يلومها على شيء.

منعته نظرات جوليا من الاقتراب منهما. بعد تردد طويل، ودقائق اختزلت عمراً، سألها بصوت تخنقه العبرات:

- هل ستسافرين؟

أجابته بثقة مهزوزة:

- وهل هناك من سيمنعني من ذلك؟

- أنا.

- بل أنت من يجبرني على الرحيل.

- ما فائدة الحب إن لم يساعدنا على الصفح.

قاطعته بجفاء:

- حبك أكبر من أن أغفر له هفوة.

أجابها في انكسار:

- ولو رحلت.. ستظلين في عمق كياني باقية. لن تبرحي قلبي ما حييت.. لن أنساك ولو شئتِ.. لن أعود إلى عائلة تهجرينني بسببها.

- أن تهجر عائلتك ذاك ذنبك. وأن تهجرها بسببي ذاك ذنب لا أتحمل وزره.

ترجاها متوسلاً:

- أرجوك لا ترحلي.

أجابته باكية:

- ليتني أستطيع.. أرجوك أن تتركني أحيا قدري. أنا وأنت مختلفان منذ البداية. قدر لنا أن نفترق .. لا تؤذِ إحساسي بك ودعني أمضي وأسير على دروب عمر لا أعرف كيف أعيشه بدونك.

تركته واقفاً وخرجت فوراً من المعرض دون أن تودع غابرييل، ولم تخبر حتى صديقتيها. لملمت آلامها وهربت منها إليها. خافت من أن يضيف كلمة أخرى فتفشل في محاربة رغبتها في البقاء وفي الصفح.

وقف حيث هو عاجزاً عن اللحاق بها. كان حديثها القصير قد قطع الشك باليقين، وتأكد من أن كل شيء قد انهار وانتهى.

قضى كل منهما ليلته يحاول مواساة نفسه، ويحاول أن يتقبل الواقع، ويدرك أن الفراق يدبج طقوس آخر ليلة تظللهما فيها سماء باريس وتبهرهما أضواؤها الساهرة.

غداً سترحل، وتفصل بينهما مسافات موغلة في امتداد لا ينتهي.

لن يجمعهما بعد الآن الوطن ذاته. ستعود هي إلى وطن أنذرهما منذ البداية أنهما نقيضان لا يلتقيان، وأنهما لن يستمرا في رحلة العمر، وأن حكايتهما بئيسة حُكِم عليها بالفشل قبل أن تبدأ.

كان كلامها عن بلدهما معاً يتردد في مسامعه. الصحراء المغربية داخل الحدود المغربية. كم تشبهها تلك الصحراء، قاسية وشامخة وعنيدة مثلها تماماً.

غرقت في حيرتها وألمها وشربت من دموعها حتى ارتوت، احتاجته كما لم تحتجه يوماً، لم تنفعها المسكنات التي تتناولها في إطفاء نار شوقها إليه. تعجبت كيف ارتبطت به ذكرياتها الجميلة منذ عرفته. لم تكن تبتسم إلا إذا ارتسمت صورته في خيالها، وملأ صوته الأرجاء من حولها. كانت تسأل نفسها بيأس، هل لي بترياق يتسرب إلى أعماق قلبي فيغسل في داخلي كل شعور جميل نحوه؟

جلس آخر ساعات الليل كعادته منذ افترقا في شرفة منزله يسترجع الشريط ذاته، وكذلك الذكريات.

كلما سلكتَ طريق النسيان ستجد نفسك مرغماً على

السير. تمضي بخطى متثاقلة وتتمنى أن تتعثر بالذكرى لتعود أدراجك.

لم ينم أحد منهما ليلته..

أشرق صباح آخر، وأشرقت معه نهاية جديدة. تفتحت وريقات الحزن وفاح عطر الألم، وحان أوان عرض المشهد الأخير من مشاهد المأساة .

بقي هو على حاله جالسا في مكانه يراقب المجهول لا ينتظر غير الفراغ الذي سيؤثث حياته. أما هي فقد كانت تودع صديقتيها بأعين دامعة، وقلب محطم يتشبث بكل ذرة من هذه الأرض، ولا يقبل أبداً أن تكون هذه هي النهاية.

كانت في طريقها إلى مطار شارل ديغول، تنظر إلى تفاصيل مدينة أتتها هاربة من حياة تعيسة، لتفر منها من جديد من حياة أخرى أشد قسوة وإيلاماً. يخيل إليها أنها تراه في كل الطرقات يلوح لها مودعاً. كان طيفه يجوس في كل الأمكنة ويهمس لها سراً: هل هو الفراق إذن؟ هل هي نهاية قصة جميلة عشناها وتلاشت مثل ضباب الليل الذي يخيم على نهر السين؟

كانت تسأل نفسها في استنكار: كيف يموت الحلم بكلمة؟

وينتهي الحب بكلمة؟ وتذبل الأماني على عتبة الرحيل بكلمة؟

لم تلهها إجراءات السفر ولا ازدحام المطار بالمسافرين عن اللهاث خلف ذكراه. كانت تعيش حالة من النفور من كل شيء. لا تبادل العاملين ابتساماتهم، ولا ترد على نظراتهم المستغربة لجمودها. سمعت نداء رحلتها إلى المغرب إلا أنها لم تقوَ على الحراك. حققت نجاحا آخر لتثبت لمن حولها أنها تستحق ثقتهم، لكن خذلتها نفسها كعادتها.

تكرر النداء دون استجابة منها. كانت كل ذرة في كيانها متشبثة بهذه الأرض. أصوات كثيرة حولها تحولت في ذهنها إلى همهمات غير واضحة تدور بها في دوامة. حاولت النطق دون جدوى.. أحست بالوهن يسري في أوصالها. أصبح نظرها للاشيء ضبابياً.. جثمت أحاسيسها على أنفاسها المتقطعة، فأحست كأن يداً خفية تخنقها. حاولت الوصول إلى هاتفها الذي يرن منذ دقائق إلا أنها لم تستطع، فانهارت جالسة على حقيبتها.

انتبه أحد المارة إلى شحوبها وارتجافها، فاقترب منها بحذر بالغ مخافة أن تكون هذه العربية المحتشمة إحدى

الإرهابيات، مع أن لا شيء فيها يدل على ذلك. بعد تردد قصير اقترب منها أكثر وسألها بالفرنسية:

- سيدتي هل أنت بخير؟

رفعت منايا بصرها بصعوبة، وردت عليه بصوت واهن:

- أنا بخير.. شكراً سيدي.

تحاملت على نفسها وقامت واقفة. رفعت رأسها في كبرياء، ثم تابعت سيرها بخطى واثقة.

اكتفى بجملته الوحيدة، ثم قام وتوارى في غمار الزحام.

جمله كلها يختارها بعناية.. يعلم توقيت إلقاء كل واحدة كصنارة بها قطعة طعم، ثم يترك الضحية تتخبط وتتأوّه من الألم حتى تهمد.. أو هي كأصابع الديناميت، يزرعها في صخور قلب الطريدة، وعندما تنفجر تحدث زلزالاً يخلخل كل مناحي الكيان. غير أنه في هذه المرة لم يهرب في الوقت المناسب، بل تلكأ حتى وقع الانفجار، وتساقطت عليه شظايا الصخرة، فنال حظه من الجراح.. لقد جعله قربه منها يدرك دلالات ومعاني كثيرة، كان يكتفي بشرحها لغيره. هو اليوم ولأول مرة يعلن أمام نفسه: أنا أحب. يحب هذه الأنثى التي لم تفعل شيئاً، مع ذلك فهو مستعد للتضحية بكل شيء مقابل نظرة أخرى وحديث آخر.

يحانث ماء العينين، مغربية، من مواليد يوليو 1987م.

- **حاصلة على الليسانس في العلوم الاقتصادية من جامعة ابن زهر - أكادير.**
- **تكتب عبر صفحتها «بقايا حب». وكذلك لها ملحق أسبوعي في مجلة «القلم» الالكترونية.**

ISBN 978-614-432-153-9

9 786144 321539